دكتور جمال الدين الشيال

تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي



تاريخ مَدِيَنة الإسكندرية
فى العصر الإسلامى

الدكتور
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامى
وعميد كلية الآداب – جامعة الإسكندرية سابقاً

دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل- القاهرة ج.م.ع.

الإهـــداء

إلى جامعة الإسكندرية ، مشعل نور، ومنارة علم ومعرفة.

إلى أساتذتها من الزملاء والأصدقاء الكرام.

إلى طلابى وطالباتى، قدامى ومحدثين، من الشباب الطموح معقد الآمـال لأمتنـا الحبيبة.

إلى جامعتى التى أعتز بها وأنتسب إليها

وهى تأخذ الأهبة للاحتفال بعيدها الفضى

أهدى هذه الباقة من الجهد العلمى المتواضع

تحية وفاء وإعزاز وإكبار.

وشارة أمل باسم لمستقبل رائع مزدهر..

جمال الدين الشيال

مقدمة

بذلت جهود علمية كثيرة لدراسة تاريخ مدينة الإسكندرية وآثارها وحضارتها وطبوغرافيتها فى العصور اليونانية الرومانية القديمة، ثم وقفت هذه الجهود عند العصر الإسلامى الوسيط، بل وتخطته إلى العصور الحديثة، وإذا تكرم واحد من الباحثين وأشار إلى هذا العصر فإنه يغمطه حقه ويتهمه ظلمًا بأنه كان عصر تدهور وتأخر واضمحلال - وهى تهمة لا تتفق والحقيقة فى شيء.

وقد عنيت بهذا الموضوع وهو «تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى» منذ سنوات طويلة، وكنت دائمًا أتساءل وأنا أقلب المراجع العربية المختلفة: ألم يكتب العرب تاريخًا خاصاً لهذا الثغر الهام فى العصر الإسلامى؟.. وهم لم يتركوا مدينة من مدنهم الكبرى أو الصغرى إلا وأرخوا لها، وبين أيدينا الموسوعات والكتب الكبيرة أو الصغيرة عن تاريخ بغداد، ودمشق، وحلب والموصل، وبخارى، وأصفهان، ومكة، والمدينة، والفسطاط، والقاهرة والفيوم.. الخ.. الخ، وبعضها مطبوع، وبعضها لا يزال مخطوطًا ينتظر من يعنى بتحقيقه ونشره، وبعض ثالث مفقود أو كالمفقود ينتظر من يبذل الجهد الجاد للبحث عنه فى زوايا المكتبات الخاصة التى لم يكشف عن كنوزها بعد..

وظللت أبحث حتى وقفت إلى نصوص تشير إلى كتاب كبير فى جزأين ألفه فى القرن السابع الهجرى (١٣م) عن تاريخ الإسكندرية واحدٌ من أبنائها وعلمائها وهو: منصور بن سليم، ورجعت إلى كتب التراجم وكتب التاريخ المطولة أحاول أن أستزيد معرفة بهذا العالم والمؤرخ السكندرى وحياته ومؤلفاته، ووجدت له ترجمات مختصرة فى (شذرات الذهب لابن العماد)[١] (وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى)[٢] و(تذكرة الحفاظ للذهبى)[٣] و(منتخب المختار للسلامى)[٤] و (السلوك للمقريزى)[٥] و (النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى)[٦] و (والإعلان بالتوبيخ لمن ذم

---

(١) ج ٥، ص ٣٤١.

(٢) ج ٥، ص ١٥٧.

(٣) ج ٤، ص ٢٤٩ وانظر أيضًا: (نفس المؤلف: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوطة دار الكتب المصرية، وفيات سنة ٦٧٣ هـ، ص ٣٩٦).

(٤) نشر عباس العزاوى، بغداد، ١٩٣٨م، ص ٢٢٩ - ٢٣١).

(٥) ج ١، ص ٦١٩.

(٦) ج ٧، ص ٢٤٧.

التاريخ للسخاوى)[1] و (وكشف الظنون لحاجي خليفة)، وهي في جملتها تُعرِّف بالرجل تعريفاً موجزًا، فتذكر أن أبا المظفر وجيه الدين منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمذانى الإسكندرى، محتسب الإسكندرية، وأنه ولد في ثامن صفر سنة ٦٠٧ هـ، وأخذ عن الكثيرين، ورحل إلى الشام والعراق، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ، وجمع لنفسه معجمًا، وكتب تاريخًا كبيرًا لمدينة الإسكندرية[2] وتوفى في الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ هـ.

وكانت فرحتي كبيرة عندما علمت بوجود تاريخ لمدينة الإسكندرية في العصر الإسلامى كتبه عالم من علمائها، وزاد في فرحتي ويقيني بوجود الكتاب أننى عثرت على فقرات كثيرة نقلها المؤرخون المصريون في القرنين الثامن والتاسع الهجريين عن هذا المؤلف.

وانطلقت أقلب فهارس المخطوطات في المكتبات المختلفة، ولا أبالغ إذا قلت أننى صحت فرحًا عندما وجدت أن فهارس المخطوطات العربية بمكتبة أيا صوفيا باستانبول تشير إلى وجود نسخة خطية من هذا الكتاب في هذه المكتبة في جزأين تحت رقمى ٣٠٠٣ و٣٠٠٤.

كان هذا منذ نحو عشرين عامًا، فبادرت في الحال بالكتابة إلى صديقى المستشرق الألمانى ريتر Ritter – وكان يقيم حينذاك في استانبول.. أستوضحه حقيقة هذه المخطوطة، وأرجوه أن يصور لى نسخة منها.

وبقدر ما كانت فرحتي عند العثور على الإشارة إلى وجود نسخة من الكتاب، بقدر ما كان حزنى وألمى عندما أتانى رد الأستاذ ريتر وفيه يقول إن الكتاب – للأسف الشديد – مفقود، وأن الكتاب الموجود مكانه والذى يحمل رقمه هو «قصة الإسكندر الرومانى وسياحاته ودخوله في الظلمة باحثًا عن ماء الحياة».

ولكننى لازلت أعتقد أن الكتاب كان موجودًا في المكتبة إلى وقت قريب، أى إلى الوقت الذى طبعت فيه فهارس الكتب العربية الموجودة في مكتبة أيا صوفيا، ثم امتدت إليه الأيدى، ولازال الأمل يداعبنى أن نوفق يوما ما للعثور عليه، وعند ذلك نحصل على وثيقة هامة جدًا توضح لنا تاريخ الإسكندرية ومعالمها في القرون السبعة الهجرية الأولى، لأن الكتاب كتبه واحد من أهليها وعلمائها، وقد تولى الحسبة بها وقتًا ما.

---

(١) ص ١٢٢.

(٢) ذكر السبكي والذهبي أنه كان في مجلدين، وذكر السخاوى أنه كان في أربع مجلدات، انظر أيضًا:
Brockelmann: *Geschichte der Adrabichen Litteratur. Supp. Uol. I. P.P. 753-574.*
و (جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١١٤ – ١١٥).

ويضاف إلى هذا الكتاب كتاب ثان ذو فائدة كبيرة للباحثين في تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي، غير أنه أقل أهمية من سابقه، لأنه لم يكتب أصلا للتأريخ للإسكندرية، وإنما للتأريخ لحادثة خاصة، وهي غزوة القبارصة الصليبية للمدينة في أواخر القرن الثامن الهجري (٧٦٧م = ٣٦٥هـ).

غير أن المؤلف التزم في مؤلفه هذا طريقة غريبة، فهو يبدأ الحديث عن بعض أحداث الغزو، ثم يستطرد منها إلى تناول موضوعات كثيرة من فقه وتاريخ وأدب وتصوف، فيغرق في ذكر التفاصيل التي تمس هذه الموضوعات إلى أن ينسى وينسى القارئ معه الموضوع الأصيل، ثم يتذكر ما كان بصدده فيعود ثانية إلى استئناف الحديث عن وقائع الغزوة وأحداثها، إلى أن ترد في حديثه كلمة توجب الاستطراد فيعود إليه[1].

وهو في حديثه الأصيل عن الغزوة القبرصية وفي استطراداته الكثيرة المستفيضة يورد معلومات وفيرة قيمة عن تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي بعامة، وفي عصر الأشرف شعبان بخاصة، لا نجد لها شبيهًا أو مثيلاً في أي مرجع آخر، وقد أفدنا من هذا الكتاب كثيرًا عند كتابة الفصل الخاص بتاريخ الإسكندرية في عصر الأشرف شعبان من كتابنا هذا..

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن القاسم النويري السكندري المالكي، فهو واحد من أهل المدينة وعلمائها[2] في القرن الثامن الهجري (١٤م)، وعنوان كتابه: «الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية، في سنة سبع وستين وسبعمائة وعودها إلى حالتها المرضية»..

والكتاب لحسن الحظ موجود وإن كان لا يزال مخطوطًا، وتوجد نسخة من الجزء الأول منه في مكتبة برلين تحت رقم ٩٨١٥ (وفي دار الكتب المصرية صور شمسية منها) وتوجد نسخة خطية من الجزء الثاني في دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢، كما توجد نسخة خطية أخرى من الكتاب مكتملاً في خزانة «بانكي بور»[3] بالهند تحت رقم ٢٣٣٥ وهي أكثر قيمة من النسختين الأوليين، لأنها كتبت في القرن الثامن الهجري فهي قريبة العهد من عصر المؤلف..

---

(١) التفت إلى هذا الأسلوب في تأليف الكتاب وأشار إليه (السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ١٢٢) فقال عند حديثه عند هذا الكتاب: «ولمحمد بن قاسم بن محمد النويري السكندري المالكي صفة الكائنة العظمى التي وقعت للفرنج في أول سنة سبع وستين حين ملكوها ونهبوا أموالها وأسروا نساءها ورجالها في ثلاث مجلدات، ولكنه استطرد فيها من شيء إلى شيء، فإنه ابتدأ بصفة فتحها، واستمر بحيث كانت الواقعة في جانب ما ذكر كالشامة».

(٢) انظر ترجمة المؤلف في: (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص١٤٢.

(٣) انظر: (السيد هاشم الندوي: تذكرة النوادر من المخطوطات العربية، حيدر أباد الدكن، ١٣٥٠هـ) و (فهرس دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ٣٨، ج ٨، ص ٢٤).

ويسر فى أن أشير هنا إلى أن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد عهد إلىّ أخيرًا بتحقيق ونشر هذا الكتاب، وأرجو أن أوفق إلى إخراجه قريبًا..

وقد كتبت عن «فضائل الإسكندرية» رسائل كثيرة، تشير المراجع إلى ثلاث منها، اثنتان موجودتان، والثالثة مفقودة - أما الاثنتان فهما:

(أ) فضائل الإسكندرية لأبى على الحسن بن عمر بن الحسن الصباغ[1] وتوجد منها نسخة خطية فى المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٦٦٣.

(ب) رسالة فى فضل ثغر الإسكندرية لجلال الدين السيوطى[2] وتوجد منها نسخة خطية فى مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة تحت رقم١٣٧٤.

أما الرسالة الثالثة المفقودة فعنوانها «فضائل الإسكندرية» كذلك ومؤلفها هو خلف بن على ابن محمد بن أحمد بن داود بن عيسى المغربى التروجى السكندرى[3] المتوفى سنة ٨٤٤ هـ.

هذه هى المؤلفات العربية القديمة التى كتبت للتأريخ لمدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وهى جميعًا - فيما عدا رسالتى ابن الصباغ والسيوطى - لمؤلفين سكندريين، وقد بذلت جهودًا كبيرًا فى تعقبها وإحصائها ودراستها منذ عنيت بتتبع تاريخ المدينة فى هذا العصر.

وقد زاد اهتمامى بتاريخ مدينة الإسكندرية منذ نقلت إلى جامعتها فى سنة ١٩٤٣م، فأقبلت على كتب التاريخ المطولة وكتب التراجم وكتب الجغرافية والرحلات أجمع ما فيها من مادة مبعثرة وأعيد ترتيبها فى نسق جديد، تمهيدًا لإخراج كتاب جديد يرد للمدينة اعتبارها ويلقى الأضواء الجديدة على تاريخها ونشاطها ومعالمها وحضارتها فى العصر الإسلامى المفترى عليه.

وكان باكورة ما أخرجته فى هذا الميدان فصلا من كتاب عن تاريخ الإسكندرية أخرجته غرفتها التجارية فى سنة ١٩٤٩م، وكان موضوع هذا الفصل «الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى».

هذا وقد نشر الأستاذ اتيين كومب بعض صفحات من هذا الكتاب فى المجلد الثالث من مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، انظر:

(Combe: *Le Texte de Nuwairi sur l'Attaque d'Alexandria par Pierre I Lusignan. Bulletin of the Faculty of arts, Farouk I Uniuersity – Alexandrie – vol. III, 1934.).*

(١) و (٢) انظر: (السخاوى: الإعلان بالتوبيخ، ص ١٢٢) و

(Rosenthal: History of Muslim Historiography. P. 383)

وترجمته العربية للدكتور صالح أحمد العلى.

(٣) انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٨٤).

وفى سنة ١٩٥٢م كتبت بحثى الثانى عن «الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر» ونشرته فى المجلة التاريخية المصرية مزودًا بسبع عشرة خريطة توضح هذا التطور.

وكان كل ما فى هذين البحثين المركزين جديدًا يكتب لأول مرة، ووراء كل كلمة فيه جهد ضخم طويل، وظل البحثان مصدرًا لكل من أراد الكتابة فى تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وظهرت بعدهما كتب ومقالات تناولت هذا الموضوع، اعتمد أصحابها كل الاعتماد على هذين البحثين، ينقلون عنهما مع تقديم أو تأخير ومع إيجاز أو تفصيل، بل لقد كان البعض يشير فى حواشى كتاباته إلى المراجع التى أخذتُ عنها وأثبتتها فى بحثى بما يشعر رجوعه إليها واطلاعه عليها، مع علمى علم اليقين أنه من العسير عليه بل لعله من المستحيل أحيانًا أن يتوفر له رؤية هذه المراجع أو الإفادة منها، وكان بعض هؤلاء الكتاب يتكرم فيشير أحيانًا إلى بحثيى، وكان بعض آخر ينقل عنهما دون أن يكلف نفسه عناء الإشارة إليهما، وهذه كلها أمور تتصل بموضوع الأمانة العلمية، وهو موضوع لم تستقر له قواعد بعد فى مجتمعنا وبين المشتغلين بالعلم والتأليف فيه.

وإذا كان هذان البحثان قد طويا فى كتاب الغرفة التجارية ومجلة الجمعية التاريخية، وأصبح من العسير على القارئ العادى الحصول عليهما والإفادة منهما، فى حين أصبحت الكتب والكتيبات التى ظهرت بعدهما واعتمدت عليهما فى متناول كل يد، وإذ كانت قد توفرت لدى مادة جديدة يمكن أن تضاف إلى ما سبق كتابته، فقد بدا لى أنه من المفيد أن أعيد كتابة الموضوع من جديد بحيث يشمل القديم والجديد، وكانت الحصيلة هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم بين يدى القارئ..

وقد ظهر لى فى العام الماضى كتاب آخر عن «أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى» قدمت فيه دراسات تفصيلية لسير نخبة من قادة الفكر فى الإسكندرية فى هذا العصر، وقلت فى مقدمة هذا الكتاب أننى التزمت المنهج الذى اتبعه المؤرخون العرب القدامى عند التأريخ للمدن العربية الإسلامية، فهم كانوا يفردون قسما من كتبهم للتأريخ للمدينة ذاتها، ثم يخصصون الجزء الأكبر للترجمة للنابغين من الرجال الذين أنبتتهم هذه للمدينة أو للنابهين ممن زاروها أو أقاموا بها ردحًا من الزمن.

وأنا حاولت أن أفعل ما فعلوا، فقدمت فى الكتاب الأول تراجم مستوفاة لبعض أعلام الإسكندرية، ثم خصصت هذا الكتاب للتأريخ للمدينة، ومع هذا فأنا أرى أننى لم أقل الكلمة

الأخيرة فى الموضوعين، فلازالت لدى حصيلة كبيرة من المادة التاريخية عن رجال الإسكندرية، وعن تاريخ المدينة، أرجو أن أوفق إلى استيفائها فى طبعات أخرى أو فى كتب جديدة قادمة.

وهذه – فيما يرى القارئ – محاولة منى لإلقاء أضواء جديدة على تاريخ مدينة من أهم وأكبر المدن العربية الإسلامية التى لعبت دورًا كبيرًا فى تاريخنا القومى، فكانت ثغرًا ورباطًا، وكانت مركز نشاط حربى واقتصادى كبير، ومركز إشعاع ثقافى وحضارى أكبر خلال العصر الإسلامى، فهى وإن كانت قد تنازلت عن مكانتها التى كانت تشغلها فى العصرين اليونانى والرومانى كعاصمة أولى لمصر، فإنها لم تفقد هذه المكانة عندما أصبحت عاصمة مصر الثانية فى العصر الإسلامى، ولم يكن الدور الذى لعبته فى العصر الإسلامى فى ميادين الحرب والبحرية والتجارة والاقتصاد والفكر والثقافة أقل شأنًا من الدور الذى لعبته فى هذه الميادين فى عصورها القديمة.

اللهم منك التوفيق، وبك العون، فألهمنا الخير دائمًا، ووفقنا للعمل الصالح ولخدمة وطننا العربى وتاريخه المجيد.

الإسكندرية { ١٧ شعبان سنة ١٣٨٦هـ
٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٦م }

جمال الدين الشيال

تاريـخ
مدينـة الإسكندريـة
فى العصر الإســلامى

المقدمة:

الإسكندرية فى العصور القديمة

١ – تخطيط المدينة.

٢ – فى العصر اليونانى.

٣ – فى العصر الرومانى.

٤ – فى العصر البيزنطى المسيحى.

١ – تخطيط المدينة

فى سنة ٣٣٢ ق.م. اتجه الإسكندر الأكبر بجيشه المظفر نحو مصر، ودخل العاصمة ممفيس، وزار أول ما زار معبد الإله «بتاح» حيث توج ملكًا على البلاد، ثم زار بعد ذلك معبد «آمون» فى واحة سيوة، وهناك نودى به ابنًا للإله «زيوس أمون»، فقد اعتبره المصريون مخلصًا لهم من نير الفرس وظلمهم.

وفى عودته من سيوة مر بقرية صغيرة على شاطئ البحر كانت سكنًا لنفر من الصيادين ورعاة الأغنام، فأعجبه موقعها، وبدأ يفكر جديًا فى اختيار هذا الموقع لبناء مدينة كبيرة تحمل اسمه؛ تلك هى قرية «راقودة» أو «راكوتيس».

وكان الإسكندر موفقًا فى اختياره، فللموقع مزايا جمة تجعله صالحاً لإنشاء مدينة كبيرة وميناء ممتاز، فهو شريط من الأرض ضيق طويل، يشرف عليه البحر من الشمال، وتحده من الجنوب بحيرة مريوط؛ وعلى مقربة من الشاطئ تجْثم جزيرة فاروس بصخورها كحاجز طبيعى يحمى المدينة المنتظرة، ويحمى السفن الشراعية عند دخولها إلى هذا الميناء الطبيعى وخروجها منه.

أما بحيرة مريوط فى الجنوب فكانت تصل المدينة المرتقبة بالنيل بواسطة ترعة «شيديا» القديمة التى كانت تقوم مقام ترعة المحمودية الحالية أو الخليج الناصرى فى العصور الوسطى؛ وعن هذا الطريق أيضا تستطيع المدينة أن تتصل بالبحر الأحمر – طريق التجارة الهام إلى الشرق الأقصى – وهذا يؤهل المدينة لأن تكون ميناءً صالحاً لنقل تجارة الهند والشرق إلى بلاد اليونان والعالم الخارجى، وهو ما كان يهدف إلى تحقيقه الإسكندر الأكبر بعد أن اتسعت إمبراطوريته وأصبحت تضم إليها هذه الأقطار المتباعدة من القارات الثلاث: أوربا وآسيا وأفريقيا؛ والإسكندرية ستكون مدينة على البحر الأبيض المتوسط قريبة من شواطئ هذه القارات الثلاث المطلة على هذا البحر، وتكاد تتوسط أملاك الإسكندر. جميعًا.

وميزة أخرى جعلتها تتفوق على موانئ مصر الشمالية الأخرى: رشيد ودمياط والفرما، ذلك أن التيارات المائية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط تخضع هذه الموانئ لعاملى التآكل والإرساب وتفقدها بذلك عامل الصلاحية، أما الإسكندرية فموقعها فى الغرب ينجيها من هذا كله.

وقد عهد الإسكندر إلى مهندسه «دينوقراطيس Deinocratis» بتخطيط المدينة، فاختار لها النمط اليونانى المعروف وقتذاك فى تخطيط المدن، وقسمها إلى شوارع مستقيمة تتقاطع فى زوايا قائمة، وساعدة على ذلك كون الرقعة المخصصة لإنشاء المدينة مستطيلة الشكل؛ وقد بدئ بتخطيط المدينة فى عهد الإسكندر، غير أنها لم تتم إنشاء ولم تتخذ عاصمة إلا فى عهد البطالمة[1].

وقد خضعت الإسكندرية منذ إنشائها حتى اليوم إلى ما تخضع له مدن العالم الكبرى، فارتفعت بها الجهود أحيانًا حتى كانت أكبر مدينة فى العالم، ثم انحط بها الزمن أحياناً أخرى وأصابها الخراب والدمار حتى كادت تكون نسيًا منسيًا؛ وضاعت مع هذه العوامل أو تلك معالم المدينة القديمة حتى قيض الله لها بعض الباحثين المحدثين، فراحوا ينقبون عن آثارها، ويتتبعون معالمها، ونتيجة لهذه الجهود الموفقة أصبح من الممكن وصف المدينة القديمة وصفًا – إن لم يكن دقيقًا – فهو أقرب ما يكون إلى الدقة التى ننشدها.

والفضل الأكبر فى تعريفنا بالمدينة القديمة ومعالمها يرجع إلى المهندس المصرى الكبير محمود الفلكى باشا، فقد عهد إليه الخديوى إسماعيل فى سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) بدراسة طبوغرافية المدينة ورسم خريطتين لها: إحداهما لتبيان معالمها القديمة فى العصرين اليونانى والرومانى، والثانية لتبيان معالمها الحديثة كما كانت وقت رسمها، أى فى عصر إسماعيل، وقد أجاب محمود بك (باشا فيما بعد) الدعوة ورسم الخريطتين؛ وهما حتى اليوم من أوثق المراجع[2] لدراسة طبوغرافية المدينة فى العصرين القديم والحديث.

ونحن – اعتمادًا على خريطة الفلكى باشا، وعلى ما كتبه شرحًا لها[3]، وعلى الأطلس التاريخى للمدينة الذى نشره «مسيو جونديه Jondet»، وعلى ما كتبه «مسيو برتشيا Breccia»[4] – مدير المتحف اليونانى الرومانى السابق – عن المدينة، نوجز فيما يلى وصف المدينة وأهم معالمها البارزة كما كانت فى العصرين اليونانى والرومانى.

---

(١) انظر المقالات الآتية، ففيها تفاصيل إضافية عن الإسكندرية فى عصرها الأول: زكى على: (الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة)، بحث نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول (الإسكندرية)، العدد الثانى، ١٩٤٤م؛ العدد الرابع، ١٩٤٨م. و (الإسكندرية فى عصر البطالمة والرومان)، بحث نشر فى كتاب: «الإسكندرية» الذى أخرجته غرفة الإسكندرية التجارية فى سنة ١٩٤٩م.

(٢) انظر مقدمة:

Jondet (Gaston): *Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie.* *Le Caire, 1921. (Mémoires Présentés a la Société Sultanieh de Geographie, tome 11.).*

(3) Mahmoud El-Falaky Bey *(Memoire sur l'Antique Alexandrie) Copenhague, 1872.*

(4) Breccia *(Alexandria ad Aegyptum) Bergame, 1914.*

٢ - فى العصر اليونانى

لم يشهد عصر الاسكندر غير تخطيط المدينة وإقامة بعض المبانى، أما عصرها المزدهر فهو عصر البطالمة، فقد بقيت ممفيس وهى العاصمة وقتًا ما فى عهد بطليموس الأول بعد استقلاله بمصر، وإليها نقل جثة الإسكندر، وبها دفنها، ثم بدا له أن يتخذ الإسكندرية عاصمة لملكه الجديد، فانتقل إليها، ونقل إليها جثمان الإسكندر، وكان يطلق على هذا الجثمان اسم «سوما Soma» ثم حُرف اللفظ فيما بعد إلى «سيما Sema»، وفى عهده وفى عهد بطلميوس الثانى تم إنشاء المدينة وأقيمت معظم المؤسسات الهامة.

كانت الإسكندرية إذن فى العصر البطلمى ممتدة من الشرق إلى الغرب على شكل مستطيل فى هذا الشريط الضيق الموجود بين بحيرة مريوط من الجنوب والبحر الأبيض المتوسط من الشمال، وتنقسم إلى شوارع مستقيمة متوازية تتقابل مع الشوارع الممتدة من الشمال إلى الجنوب فى زوايا قائمة، ويتخلف عن تقاطعها مربعات صالحة لإقامة المبانى والبيوت عليها؛ وكانت تمتد على جانبى كل شارع من الشوارع الهامة سلسلة من البوائك والعقود ذات الأعمدة والتماثيل لتزيين هذه الشوارع، ولحماية المارة من وهج الشمس.

وكان أهم الشوارع - تبعًا لتحقيقات الفلكى باشا شارعين:

= ولمن يريد التوسع فى البحث أن يرجع إلى المراجع الآتية:

- الدكتور إبراهيم نصحى، مصر فى عصرالبطالمة، جزءان، القاهرة ١٩٤٦م.
- محمد مسعود، المنحة الدهرية فى تخطيط الإسكندرية، الإسكندرية، ١٣٠٨ هـ.
- على مبارك باشا، الفصل الكبير الذى كتبه عن الإسكندرية فى (الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء السابع كله).
- تقى الدين أحمد بن على المقريزى، الفصل الكبير الذى كتبه عن الإسكندرية فى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ص٢٣٢ - ٢٨٣، طبعة النيل، ١٣٢٤هـ).
- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٥، ص ١١٦ - ١٢٦، بولاق، ١٣١٠ هـ.
- السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١ ، ص ٣٦ - ٤٢.
- ياقوت، معجم البلدان، مادة «إسكندرية».
- فؤاد فرج، الإسكندرية، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٤٢م.

- A.M. de Zogheb: *Etudes sur l'ancienne Alexandrie, Alex. 1910.*
- Tarn (W.W.): *Hellenistic Ciuilisation, London, 1930.*
- Enc. Islam. Art: *Alexandria.*
- Jones (A.H.M.): *The Greek City. Oxford, 1940.*

- أحدهما الشارع الكانوبى[1] ويمتد من شرق المدينة إلى غربها، وعرضه مائة قدم، وفى نهايته من الشرق باب الشمس[2]، وفى نهايته من الغرب باب القمر.

- والثانى شارع «السيما»[3]، ويقطع السابق فى منتصفه تقريبًا، ويمتد من شمال المدينة إلى جنوبها.

وكانت بقية الشوارع موازية لهذين الشارعين وتحمل أسماء أفراد من الأسرة المالكة؛ وقد كشف الفلكى باشا فى حفائره عن سبعة شوارع طولية كانت تمتد من الشرق إلى الغرب، وعن أحد عشر شارعًا عرضيًا كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب، وذكر أن هذه الشوارع جميعًا كانت مرصوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر.

وكانت المدينة مقسمة إلى أحياء خمسة، سميت بالأحرف الهجائية الأولى فى اللغة اليونانية (ألفا، بيتا، جاما، دلتا، ابسيلون)، وأهمها أحياء ثلاث:

١ - الحى الملكى فى شرق المدينة، وكان يحده على وجه التقريب شارع السيما من الغرب، وحى اليهود من الشرق، وطريق كانوب من الجنوب، والطرف الشرقى من الميناء الشرقية ورأس لوكياس (السلسلة) من الشمال؛ وكانت تقوم فيه القصور الملكية تحيط بها الحدائق الغناء على مرتفعات من الأرض تتيح لها الإشراف على الميناء والبحر.

وفى هذا الحى أيضًا كانت تقوم «دار الحكمة أو الأكاديمية Museum»، والمكتبة الكبيرة، والمسرح؛ وفى ناحيته الغربية بنى معبد «القيصريون Caesareum»[4]، أمرت ببنائه الملكة كليوباترة السابعة تكريمًا لزوجها أنطونيوس، ولكنه تم بناء بعد فتح الرومان لمصر تكريمًا للإمبراطور أغسطس. وعند مدخل هذا المعبد أقيمت مسلتان عرفتا فيما بعد باسم «مسلتا كليوباترة»، وقد ظلتا قائمتين فى مكانهما - بعد زوال المعبد - حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى[5]، تشرفان على الميناء الشرقية عند محطة الرمل الحالية، وموقعهما واضح فى كل الخرائط التى رسمت للإسكندرية حتى عهد الحملة الفرنسية.

---

(١) مكانه الآن شارع فؤاد الأول وامتداده فى شارعى سيدى المتولى وإسحاق النديم.

(٢) هو باب رشيد أو باب القاهرة كما كان يسمى فى العصور المختلفة.

(٣) مكانه الآن شارع النبى دانيال.

(٤) كان موقع هذا المعبد فى المكان الواقع بين عمارة يحيى باشا أمام محطة ترام الرمل الحالية، والكنيسة المرقسية للأقباط والكنيس الإسرائيلى.

(٥) نقلت إحدى هاتين المسلتين إلى إنجلترا سنة ١٨٧٧م، ولا تزال قائمة حتى الآن على ضفة نهر التايمس بمدينة لندن؛ ونقلت الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٧٩م، وهى إلى الآن قائمة فى «سنترال بارك» بمدينة «نيويورك».

وفى الجنوب الغربى من هذا الحى أقيم قبر الإسكندر (Sema) فى الشارع الذى حمل اسمه - كما يرجح معظم الباحثين - وحول قبر الإسكندر أقام البطالمة قبورهم فى المكان المعروف حينذاك بالبانيوم (كوم الدكة الحالى)، وقد ذكر «استرابون» أن هذا النهد من الأرض كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعًا وأنه كان يصعد إليه بواسطة سلم حلزونى، وأن من يعتليه كان يستطيع أن يشرف من قمته على كل أنحاء المدينة.

وإلى الشرق من البانيوم كانت توجد دار المحكمة ويليها الجمنازيوم، وهو الملعب الكبير الذى كان يطل على طريق كانوب.

٢ - وإلى الشرق من هذا الحى الملكى كان يقوم حى «دلتا» وهو حى اليهود، وبه مقابرهم، فقد كانوا يكونون فى العصر اليونانى والرومانى جالية كبيرة لها خطرها فى الحياتين السياسية والاقتصادية.

٣ - وفى الجنوب الشرقى من المدينة - حيث كانت قرية راكوتيس القديمة - كان يقوم الحى الوطنى(١)، وفيه يسكن الأهلون؛ وفى هذا الحى كان يقوم معبد السيرابيوم، وهو معبد عظيم أقامه البطالمة على تل مرتفع يصعد إليه بسلم ذى مائة درجة، وكانت تحيط به الأبهاء والأروقة الفسيحة، تزينها الأعمدة الضخمة والتماثيل الجميلة، وقد أنشأه البطالمة فى أوائل عهدهم ليكون مقرًا للعبادة الجديدة التى أنشئوها، وهى عبادة «سيرابيس»، وكانت مزيجاً من العبادتين اليونانية والمصرية القديمة، وذلك لتحقيق أهدافهم التى كانت ترمى إلى العمل على اختلاط المصريين واليونانيين وخاصة فى الديانة، ولهذا اختاروا أن يقام هذا المعبد فى الحى الوطنى حيث يسكن الأهلون؛ وكان يقوم فى هذا المعبد تمثال ضخم للإله «سيرابيس»، كما أنشئت فيه فيما بعد مكتبة صغيرة؛ وبالقرب من السيرابيوم أنشئ معبد أنوبيس «الأنوبيون»، وبجانبه مقبرة للحيوانات المقدسة.

وكان يحيط بالمدينة سور ضخم ذو أبراج وحصون وأبواب كثيرة، كان أهمها: باب الشمس فى الشرق، وباب القمر فى الغرب.

ومن المرجح أنه بدئ فى بناء الأسوار فى عهد الاسكندر ثم أتمها البطالمة، وزاد فيها وفى تحصينها الرومان بعد ذلك؛ وهذا السور هو الذى كان يحدد المدينة المأهولة، وكان يبدأ غرباً من نهاية طريق كانوب، ويمتد محاذيًا شاطئ البحر إلى رأس لوكياس شرقًا، ثم ينحدر جنوباً إلى أن يتلاقى وترعة الإسكندرية، ثم يسير محاذيًا لها إلى أن يتصل بالنقطة التى بدأ منها، فى

(١) منطقة كوم الشقافة الحالية، وما يحيط بها من أحياء وطنية.

شكل مستطيل تقريبًا، وقد كشف الفلكى باشا عن أجزاء من هذه الأسوار القديمة، ويتبين من دراسة هذه الأجزاء أن عرض أساساتها كان خمسة أمتار، وأنها بنيت من الأحجار المأخوذة من محاجر المكس.

أما خارج السور شرقًا وغربًا فكان رمالا ممتدة غير مأهولة بالسكان تتخللها أشجار النخيل، وإنما كان يوجد فى غربى المدينة وخارج الأسوار مقبرة المدينة (فى المنطقة بين الشاطبى وكامبو تشيزارى الحالية).

وإلى الغرب من هذه المنطقة أيضًا (فى حى الإبراهيمية الحالى) عثر على مقبرة بها رفات المتطوعة فى الفرق الأجنبية بالجيش البطلمى، وإلى الجنوب منها كان يوجد ميدان كبير لسباق الخيل كان يسمى «الهيبودروم» (بجوار نادى سبورتنج الحالى)، ثم تتصل الرمال بعد ذلك إلى أن تصل إلى مدينة كانوب القديمة (أبو قير الحالية تقريبًا) التى كانت تقع عند مصب الفرع الكانوبى.

وكانت المدينة تطل على البحر مباشرة، والمياه تفصل بين شاطئها وبين جزيرة «فاروس» فبنى فى العصر البطلمى رصيف حجرى طويل يصل الشاطئ بالجزيرة، وكان طول الرصيف سبعة «ستاد»، ولهذا كان يسمى باليونانية «هيبتا ستاد»[1]، وكان عرضه وقت إنشائه لا يزيد على ٣٠ مترًا.

وكان إنشاء هذا الرصيف عملا موفقًا، فقد خلق للمدينة مينائين بدلا من ميناء واحد:

الميناء الشرقى، ويحدده من الغرب «الهيبتا ستاد»، ومن الشرق رأس لوكياس، وكان يسمى الميناء الكبير أو الميناء القديم، وهو الذى كان يستعمل طوال العصر البطلمى وجزءًا من العصر الرومانى.

والميناء الغربى ويقع إلى الغرب من رصيف «الهيبتا ستاد»، وكان أقل استعمالاً من الميناء الشرقى، ولم يصبح له المكانة الأولى إلا فى أواخر العصر الرومانى عندما اتسع مدخل الميناء الشرقى، وضاق تبعًا لذلك مدخل الميناء الغربى ولهذا أصبح يسمى بالميناء الجديد.

وكان يوجد فى داخل هذا الميناء الغربى ميناء آخر صغير مقفل من جميع الجهات، ويسمى «كيبوتوس»، أى الصندوق المقفل، وكانت تصله ببحيرة مريوط قناة ملاحية صغيرة.

---

(١) كانت نهاية هذا الرصيف جنوبًا تقع على بعد مائة متر تقريبًا إلى الشمال الشرقى من كوم الناضورة الحالى، أما نهايته من الشمال فكانت فى الجنوب من جزيرة فاروس حيث يقع شارع أبو وردة الحالى، وبالقرب من مصلحة الموانى والمنائر.

وكان يوجد في الجنوب الشرقي من الميناء الشرقي، وبالقرب من الشاطئ ومن رأس لوكياس، جزيرة صغيرة، هي جزيرة «انتيرودوس» وقد انخفضت هذه الجزيرة في العصور الوسطى. وأصبحت تغطيها المياه؛ وكان لهذه الجزيرة أهمية خاصة، فقد أقيم عليها قصر من القصور الملكية يطل على ميناء ملكية كانت خاصة لاستعمال الأسرة المالكة وحدها.

وعلى رأس لوكياس (السلسلة حاليًا) كانت تقوم بقية القصور الملكية ومما يستوجب الإشارة أن هذه الرأس كانت في العصور القديمة غيرها اليوم فقد كانت أعرض بكثير[1]، ثم انتقصت العوامل المختلفة من أطرافها – وخاصة الزلازل المتتابعة – غير أن إنشاء رصيف «الهيبتا ستاد» كان له أكبر الأثر فيما أصاب رأس لوكياس والميناء الشرقي من تغيير، فقد عملت الأمواج بعد إنشاء هذا الرصيف على إرساب الطمي حوله، وعلى النحر أو الأكل في الجانب الآخر وهو رأس لوكياس. ونتيجة لهذا التآكل اتسع مدخل الميناء الشرقي مع مرور الزمن اتساعًا كبيرًا، فهو اليوم غيره وقت إنشاء المدينة.

أما جزيرة «فاروس»، فكانت تعتبر بموقعها الممتاز الخط الأمامي للدفاع عن المدينة، وكانت نهايتها الشرقية تشرف على مدخل الميناء الشرقي، وعلى هذه النهاية أقيمت المنارة القديمة العظيمة، وسميت باسم الجزيرة نفسها «فاروس» ثم حرفت بعد ذلك إلى «فار» أو «فنار».

وكانت هذه المنارة تتكون من أدوار ثلاثة، الأول مربع، والثاني مثمن والثالث مستدير، وارتفاعها جميعًا ١٢٠ مترًا، وكان يحيط بالدور الثالث ثمانية أعمدة تحمل قبة ضخمة، في داخلها مصباح كبير يرسل أشعته ليلاً ليضيء السبيل للسفن الوافدة على الميناء، وكان يعلو هذه القبة تمثال ضخم من البرونز يمثل إله البحر «بوسيديون»، ويقال إن ارتفاعه كان نحو سبعة أمتار[2].

---

(١) كان عرضها قديمًا أكثر من كيلومتر، وهي الآن لا تزيد على ٣٠ مترًا.

(٢) كانت منارة الإسكندرية تعد في القديم إحدى عجائب الدنيا، لهذا كانت أبرز ما يلفت أنظار زائري المدينة، وقد كتب عنها كثيرون من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، انظر مثلاً ما ورد عنها في ابن الفقيه (كتاب البلدان ٧٢)؛ وابن رسته (الأعلاق النفيسة، ص ٧٨، ١١٨)؛ وابن حوقل (كتاب المسالك والممالك، ص ٩٩)؛ وابن خرداذبة (المسالك والممالك، ص ١١٥)، والأدريسي، (نزهة المشتاق، ص ١٣٩ – ١٤٠)؛ والمقدسي (أحسن التقاسيم، ص ٢١١)، وهذه جميعًا كتب مطبوعة يمكن الرجوع إليها؛ وفي رحلة ابن رشيد المعنونة (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة، ج ٣، ص ٢٠) وصف طيب للمنارة، والرحلة لا تزال مخطوطة ونسخها محفوظة في مكتبة الأسكوريال؛ وتوجد من بعض أجزائها صور شمسية في مكتبة البلدية بالإسكندرية؛ ولعل أدق وصف وصلنا للمنارة هو ما كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالكي الأندلسي الذي زار الإسكندرية في القرن السادس الهجري وذلك=

وكانت بحيرة مريوط تحد المدينة من الجنوب،وهى بحيرة داخلية عذبة المياه، وكانت تصلها بالفرع الكانوبى ترعة «شيديا» القديمة التى كانت تصب فى البحر وفى ميناء «كيبوتوس» الداخلية؛ وكان يتفرع منها فرع يسير على وجه التقريب فى مجرى ترعة الفرخة الحالية، ويخترق المدينة ليصب فى الميناء الشرقى؛ ومصورات المدينة فى العصور الوسطى تبين فروعًا أخرى صغيرة لهذه الترعة كانت تتخلل المدينة لإيصال المياه الحلوة إلى مختلف أنحائها، وتشير المراجع إلى أن هذه الفروع كانت قنوات تحتية تحمل الماء إلى صهاريج البيوت، وذكر علماء الحملة الفرنسية أنه كان بالمدينة وقت وجودهم بها حوالى ٣٠٠ صهريج صالحة للاستعمال، وقد كشف الفلكى باشا أثناء قيامه بحفائره فى سنة ١٨٧٢م عن ٧٠٠ صهريج منها.

= فى كتابه (ألف باء، المطبعة الوهبية، ١٢٨٧ هـ)؛ وقد كتب المغفور له الأمير عمر طوسون بحثًا بالفرنسية معتمدًا على هذا الوصف، وعنوانه:

- Toussoun (Omar): *Description du Phare d'Alexandrie d'aprés un Auteur Arabc du XII. Siécle (Bull S.R. d'Arch. d'Alex. No. 30, Alexandrie. 1935)*

وانظر أيضًا:

Combe (Et.) *De la Colonne Pompée au Phare d'Alexandrie, dans: (Bull. S.R. d'Alexandrie, No. 34 Alexandrie, 1940).*

٣ - فى العصر الرومانى

فى سنة ٣٠ ق.م احتل أوكتافيوس أوغسطس مدينة الإسكندرية، ومنذ تلك السنة فقدت مصر استقلالها، وأصبحت ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية؛ ومنذ تلك السنة أيضًا اتضعت مكانة الاسكندرية؛ حقيقة لقد ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر، ولكن فرق كبير بين أن تكون عاصمة لدولة مستقلة وبين أن تكون عاصمة لولاية تابعة لدولة أخرى.

ومع هذا فقد ظلت المدينة تحتفظ بمكانتها، واضطرد نموها، وأقيمت فيها فى هذا العصر منشآت كثيرة جديدة، ولكنها أصيبت خلال هذا العصر بمحن كثيرة كان لها أثر كبير فى تخريب بعض مبانيها، وتغيير بعض معالمها وخاصة فى أواخر هذا العصر الرومانى عندما انتشرت المسيحية فى مصر، وفى عاصمتها الإسكندرية بوجه خاص.

والذى نلاحظه أن شكل المدينة العام لم يتغير كثيرًا فى هذا العصر، لهذا سوف لا نشير هنا إلا إلى المعالم الجديدة التى أقيمت فى العصر الرومانى، وأهمها:

١ - معبد القيصريون:

وهو بناء مخضرم لأنه شهد العصرين، فقد بدأت بناءه الملكة كليوباترة السابعة تكريمًا لزوجها أنطونيوس، ثم أكمل بناؤه بعد فتح الرومان لمصر تكريما للإمبراطور أوغسطس؛ وقد بنى هذا المعبد على مساحة كبيرة أمام محطة الرمل الحالية فى المنطقة الواقعة بين عمارة يحيى باشا وبين الكنيسة المرقسية للأقباط والكنيس اليهودى؛ وقد وصفه المؤرخ اليهودى «فيلون Philo » فى منتصف القرن الثانى بقوله: لا يوجد فى العالم بأسره مثل هذا الحرم المقدس. وتبدو معالمه واضحة جلية عند مدخل الميناء، ولا يخطئه الإنسان لعظم حجمه».

وأمام هذا المعبد أقامت كليوباترة المسلتين الشهيرتين اللتين أحضرتهما من معبد عين شمس؛ وفى سنة ٣٥٤م، وفى عهد الإمبراطور البيزنطى «قسطنطينيوس» أحال المسيحيون هذا المعبد كنيسة، وظل اليعاقبة والملكانيون يتنازعون على ملكيته إلى أن أصابه الحريق فى سنة ٩١٢م.

ولهذا المعبد فى عهديه الوثنى والمسيحى، وللمسلتين المقامتين أمامه أهمية خاصة، فقد كانت جميعًا من معالم المدينة البارزة التى ظهرت واضحة فى أوصاف المؤرخين والرحالة، وفى مصوراتهم التى رسموها للمدينة فى العصور الوسطى؛ ومن حسن الحظ أن ظلت المسلتان باقيتين فى مكانهما القديم إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فكانتا من المعالم الهامة التى

أعانت الباحثين على دراسة طبوغرافيـة المدينـة وتحديـد مواقـع شـوارعها ومبانيـها ومنشـآتها القديمة.

٢ - مدينة نيكوبوليس:

بناها الإمبراطور أغسطس شرقى المدينة على شاطئ البحـر فـى المنطقـة الواقعـة بـين شـاطئ مصطفى باشـا وجليمونوبولـو، وسماهـا «نيكوبوليـس» أى مدينـة النصر وذلـك تخليـدًا لذكـرى انتصاره على جيوش كليوباترة وأنطونيوس، ونيكوبوليس تعتبر فـى الحقيقـة ضاحيـة عسـكرية أكثر منها مدينة، فقد كانت مقرًا لإقامة الجيش الرومانى فحسب.

٣ - عمود السوارى:

حوالى سنة ٢٩٧م قامت فى مصر ثورة شاملة ضد الحكم الرومانى، وكانت هذه الثورة أخطـر ما تكون فى مدينة الإسـكندرية، فـأتى إليـها الإمـبراطور دقلديـانوس بنفسـه، وظـل يحاصرهـ ثمانية أشهر طوالا إلى أن خضعت وسلمت وقد حـاول دقلديـانوس بعـد دخولـه الإسـكندرية أن يسترضى الأهلين ويقربهم إليه فأمر بتوزيع العطايا والخبز عليـهم، وبعـد عودتـه إلى رومـا أرا «بوستيموس» وإلى مصر الجديد أن يقيم نصبًا تذكاريًـا لزيـارة الإمـبراطور المدينـة، ليكـون رمـز لاعترافها بجميله عليها وعلى سكانها، فأقام هـذا العمـود الضخـم المرتفـع الفـارع فـى ارتفاعـ داخل معبد السيرابيوم، ونقش على قاعدته من الناحية الغربية هذه الجملة: «تذكار من مدينـ الاسكندرية، أقامه الحاكم «بوستيموس» للإمبراطور دقلديانوس الذى لا يقـهر، اعترافـاً بفضلـ عليها» ويقال إنه أقام فوق هذا العمود تمثالاً كبيرًا لهذا الإمبراطور، وأن هذا التمثـال سـقط مـ الزمن.

والعمود منحوت من قطعـة واحـدة مـن حجـر الجرانيـت الأسـوانى، ويبلـغ ارتفاعـه وحـد ٢٠,٧٥ مترًا، كما يبلغ ارتفاعه إذا أضيفت إليه القاعدة والتـاج ٢٦,٨٥ مـترًا، وهـو فـى أسـفل أعرض منه فى أعلاه، فإن قطره من أسفل ٢,٧٠ مترًا، ومن أعلى ٢,٣٠ مترًا.

وقد سماه الأوربيون - فى كتبهم - خطأ - باسم «عمود بومبـى»، كمـا سمـاه المصريـون فـ العصر العربى باسم «عمود السوارى».

وكان هذا العمود لضخامته وارتفاعه موضع إعجاب كل من زاروا الإسكندرية وكتبوا عنها فى العصور القديمة والوسطى. وبقاء هذا العمود فى مكانه الذى أقيم عليه أول ما أقيم أفاد الباحثين كثيرًا عند إعادة تخطيط المدينة، شأنه فى ذلك شأن كثير من معالم المدينـة البـارزة التـى ظلـ كما هى - رغم تعاقب السنين - إلى وقت قريب، كمسلتى كليوباترة، والسور، وكـوم الديمـا (كوم الدكة)، وكوم الناضورة والمنارة.. الخ.

٤ - فى العصر البيزنطى المسيحى

كانت الإسكندرية عاصمة كبرى فى العهد البطلمى، كما كانت الميناء الأول فى البحر الأبيض المتوسط، تأوى إليه السفن من كل موانئ هذا البحر تحمل إليها أصناف البضائع والطرف، وتنبعث الأنوار من منارتها لتهدى هذه السفن وتجذبها إلى شواطئ مصر، كما كانت المدينة تضج فى الداخل بألوان النشاط التجارى والعلمى والثقافى، فأسواقها تنتغش بأجناس البشر من التجار ورجال العمل والمال، وردهات متحفها وغرفات مكتبتها وأبهاء معابدها تضيق بالعلماء والفلاسفة والأدباء ورجال الفكر.

ثم انتهى عصر البطالمة وانضمت مصر إلى الدولة الرومانية، وتراجعت الإسكندرية عن مكانتها الأولى قليلاً، فقد غدت عاصمة لولاية بعد أن كانت عاصمة لدولة كبيرة مستقلة، ولكن عناصر التقدم ظلت كامنة فى كيانها وفى نفوس المصريين من أبنائها، ولهذا لا نلبث أن نرى المدينة فى العصر الرومانى المتأخر - أى العصر البيزنطى - تقفز إلى الأمام لتتخذ مكان الصدارة ثانية، وتصبح محط أنظار العالم وسبب القلق للدولة الحاكمة، وكانت عدتها فى هذا أن احتضنت دينًا جديدًا فرعته وعملت على نشره وحمايته.

ففى أحد أيام سنة ٤٥م، أشرقت الشمس على المدينة وهى تستقبل فيمن تستقبل من روادها كهلاً رقيق الحال رث الثياب ذا لحية كثة، جاء يسعى إليها ماشيًا على قدميه من مدينة قورينا عاصمة إقليم برقة المجاورة، ودخل هذا الرجل الغريب من باب القمر، ودلف إلى شوارع الإسكندرية يرتادها، وقادته قدماه إلى حواريها الضيقة وأزقتها الوطنية التى تزدحم بالفقراء والمساكين من أهلها، فلما أنهكه التعب التمس مقعدًا عند إسكافى فقير رآه منهمكًا فى خصف النعال وإصلاحها، ودار الحديث رقيقًا بين الرجلين، ثم امتد وطال، وكان ذلك إيذانًا بعقد أواصر الصداقة بينهما، ويالها من صداقة! فقد فتحت فى تاريخ الإسكندرية ومصر، بل وفى تاريخ العالم صفحة جديدة.

كان هذا الرجل الملتحى هو مرقس بشير المسيحية فى مصر، وكان هذا الإسكاف هو «أنيانوس» أول بطارقة الكنيسة المصرية، وكان هذا الدين السماوى الجديد هو المسيحية التى انتشرت فى الإسكندرية، ثم فى ربوع مصر كلها فى سرعة عجيبة، دهشت لها الدولة الرومانية، ودهش لها العالم أجمع.

ولم يكن انتشار المسيحية فى مصر بهذه السرعة أمرًا غريباً، فقد كانت فى مصر بالذات الأسباب الممهدة لهذا الانتشار، لأن العقائد الوثنية المصرية فى العصر الفرعونى كانت فيها أشباه ونظائر كثيرة لمعتقدات المسيحية، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالمصريون القدماء عرفوا الوحدانية التى دعا إليها إخناتون، والوحدانية أساس الدين المسيحى بل وكل الأديان السماوية الأخرى، وفكرة الثالوث لها شبيه فى الثالوث المصرى القديم الذى كان يجمع بين إيزيس وأوزوريس وحوريس؛ وفكرة العماد قريب منها الغسل بالماء المقدس الذى تتكرر صوره على جدران المعابد الفرعونية.

وسرعان ما انتشرت المسيحية فى مصر، وأصبحت الإسكندرية مقرًا لأول كنيسة منظمة لها كيانها وتقاليدها وكهنوتها، وغدت بذلك عاصمة دينية لها شأنها، وظهر فيها عدد كبير من رجال الفكر المسيحى من أمثال: اكليمنضس السكندرى، وأريجانوس الفيلسوف الأفلوطينى، ولم يكد يحل القرن الثانى للميلاد حتى عادت إلى المدينة زعامتها الفكرية التى عقدت لها ألويتها فى القديم عند إقامة المتحف والمكتبة.

غير أن انتشار المسيحية لم يكن سهلاً ميسرًا، وإنما لاقى المسيحيون الأول من أهل المدينة أصناف العذاب وألوان الاضطهاد، وخاصة فى عهد الإمبراطور دقلديانوس، ولكن هذا العذاب لم ينل من عزيمة السكندريين والمصريين، بل زادهم قوة وإصرارًا على التمسك بعقيدتهم إلى أن كتب لهم ولسكان الإمبراطورية النصر أخيرًا حين احتضنت الدولة الدين الجديد، وأعلن الإمبراطور قسطنطين المسيحية دينًا رسميًا للدولة فى سنة ٣١٣م.

وانتقل المسيحيون من مرحلة النضال إلى مرحلة الدراسة، وبدأت تظهر بينهم أوجه للخلاف فى تفسير أمور الدين، ونشأت نتيجة لهذا المذاهب، وكانت الإسكندرية باعتبارها مركزًا من أكبر مراكز المسيحية أول ميدان ظهرت فيه بوادر هذه المذاهب، فقد نشب الخلاف بين رجلين من رجال المسيحية فى الإسكندرية، هما: أريوس، واثناسيوس؛ وانضم إلى كل منهما أتباع ومؤيدون، وكثر الشغب بين الفريقين، وأصبح لزامًا أن يعمل المسئولون على وضع حد لهذا الخلاف، وبذلك بدأ تاريخ المجامع العالمية - أو المسكونية كما كانت تسمى - وفى مجمع نيقية الذى انعقد فى سنة ٣٢٥م استطاع أثناسيوس أن يدحض براهين رفيقه، وصدر القرار بالقضاء على تعاليم أريوس.

وفى الإسكندرية ولدت نواة حركة مسيحية أخرى كان لها شأنها وخطرها فى تاريخ الديانة المسيحية والفكر المسيحى، بل والعالم المسيحى قاطبة، تلك هى حركة الرهبنة، فقد لجأ نفر من مسيحى الإسكندرية فى القرن الثانى للميلاد إلى وادى النطرون، وعاشوا هناك عيشة الزهد

والعبادة وسط الصحراء، وظلت هذه الحركة تنمو وتنتشر إلى أن كان القرن الخامس الميلادى، وفيه يقال أن عدد الرهبان كان يقدر بحوالى خمسين ألف راهب، وأصبح هؤلاء الرهبان قوة كبرى لها شأنها وخطرها، واعتمد عليهم بطارقة الإسكندرية فى محاربة الوثنية والقضاء عليها، ففى سنة ٣٥٤م استولى الرهبان بقيادة أثناسيوس على معبد القيصريين وأحالوه إلى كنيسة، وفى سنة ٤١٥م - وفى عهد بطرقية كيرلس الأول - هاجم الرهبان الفيلسوفة اليونانية هيباشيا وهى تقود عربتها فى شارع السوما، وقبضوا عليها وقتلوها، فكان ذلك إيذانا بانتهاء عهد الوثنية إلى غير رجعة، وأصبحت المسيحية وحدها هى صاحبة الكلمة فى مدينة الإسكندرية.

كانت هذه الانتصارات المتتابعة سببًا لويل جديد أصاب الإسكندرية ومصر جميعًا، فقد أصبحت الإسكندرية تعتبر زعيمة روحية للمسيحيين، وغدت قبلة الأنظار، مما أثار منافسة بيزنطة عاصمة الدولة الكبرى ومقر الإمبراطور، ونشأ نتيجة لذلك صراع مذهبى بين العاصمتين، أو بمعنى أصح بين الدولة الحاكمة والولاية التابعة، واستعملت الدولة كل أنواع العنف لترغم أنف الولاية والمدينة، واندمج العاملان السياسى والمذهبى أحدهما فى الآخر، وأصبح نضال الإسكندريين والمصريين نضالاً دينيًا وقوميًا فى وقت واحد، وكان المظهر الذى اتخذه هذا النضال هو النزاع على طبيعة المسيح وإرادته الواحدة أو الثنائية.

أما قبط مصر فقد نادوا بفكرة الوحدانية، وأما أهل الدولة فقد أخذوا بفكرة الثنائية، وكالعادة عقد مجمع فى خلقدونية فى سنة ٤٥١م، وأنزل الإمبراطور سخطه وغضبه على وفد مصر ورئيسه ديسقوروس، وجرد هذا الرئيس من منصبه ونفاه، وقضى المجمع بالأخذ بفكرة الثنائية، وهى المذهب المكانى، وبالقضاء على المذهب اليعقوبى المصرى.

ولكن قبط مصر لم يهنوا ولم يخضعوا، بل تمسكوا بعقيدتهم، وناضلوا فى سبيلها نضال المستميت، واتخذ النضال كما قلنا مظهرًا قوميا، فكرهوا كل ما هو بيزنطى، وأصبح لهم بطريقهم الخاص الذى اختاروه لأنفسهم إلى جانب البطرق الملكانى الذى يعينه الإمبراطور؛ ولهذا نجد أن معظم بطارقة الأقباط المتأخرين قضوا حياتهم مشردين فى المنفى أو فى قلب الصحراء، وكان آخرهم للبطريق بنيامين الذى وجده عمرو بن العاص عند فتح العرب لمصر ملتجئًا إلى أحد الأديرة بوادى النطرون، فأمنه عى حياته، وسمح له بالعودة لتولى منصبه.

وفى هذا العصر أخذ المسيحيون يحيلون بعض المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس، أو ينشئون الكنائس الجديدة، لتكون مقرًا لعبادتهم، وقد أصبحت هذه الكنائس منذ ذلك الحين من المعالم الجديدة التى تميز المدينة، ونجدها ظاهرة إلى جانب المعالم القديمة فى بعض المصورات التى رسمها الرحالة الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى، وأهم هذه الكنائس:

١ – كنيسة القديس مرقس [1] البشير، وكانت مقامة على شاطئ الميناء الشـرقى بـالقرب ‍ه رأس لوكياس (السلسلة).

٢ – كنيسة القديس أثناسيوس التى أنشئت حوالى سنة ٣٧٠هـ، ويظن أنها كانت تقـوم ف المكان الذى بنى عليه جامع العطارين فيما بعد، فإن علماء الحملة الفرنسية ذكروا هـذا الجـا باسم «جامع كنيسة القديس أثناسيوس».

٣ – كنيسة القديس ميخائيل، وقد اختلف فى تحديد موضعـها، فبعـض يقـول إنـها بنيـ على آثار معبد قديم قريبًا من مبنى البلدية الحالى، وبعض آخر يقـول إنـها بنيـت مكـان مع القيصريـين الـذى حولـه القديـس أثناسيوس إلى كنيسـة مسـيحية فـى سـنة ٣٥٤م فـى عـ الإمبراطور قسطنطينيوس.

٤ – كنيسة يوحنا المعمدان، وقد أقيمت فى سنة ٣٩١م على أنقاض معبد السيرابيوم بعـد هدم المسيحيون معظم مبانيه، ويقال إن هـذه الكنيسـة ظلـت قائمـة إلى القـرن العاشـر الميـلا حيث خربت.

٥ – كنيسة العذراء مريم، وقد بناها بالقرب من الميـنـاء الغربـى البطريـق تيونـاس (٢٨٢م ٣٠٠م)، وقد اعتبرت منذ بنائها الكنيسة الكتدرائية، وبنيت إلى جانبها دار البطارقة القديمـ وظلت على هذا الوضع مدة طويلة إلى أن تهدمت، وبنى مكانها فى العصر العربى مسـجد كـ عرف باسم «الجامع الغربى» لقربه من المياه الغربى، ثم عرف فيمـا بعـد بجـامع الألـف عمـ لكثرة مابه من أعمدة [2].

ولا يفوتنا أن نشير أخيرًا إلى أثر المسـيحية فـى المنطقـة المجـاورة لمدينـة الإسـكندرية، ف نشأت كما سبق أن ذكرنا – مع قيام المسيحية فى مصر حركة الرهبنة وبنى الرهبـان فـى قلـ الصحراء الأديرة الكثيرة يقيمون فيها للتبتل والعبادة، وقد أقيم فى المناطق المجاورة للإسكندر عدد من الكنائس والأديرة الهامـة، منـها الكنيسـة العظيمـة التى بناهـا الإمـبراطور أركـاديو (٣٩٥م – ٤٠٨م) على قبر أبى مينا فى الصحراء الغربية على بعد عشرة كيلو مترات تقريباً مـ قرية مريوط الحالية، ومنها معبد أبى صير الذى أحاله المسيحيون فى العصر البـيزنطى إلى د

(١) فى سنة ٨٢٨م سرق اثنان من البنادقة جثمان القديس مرقس، ونقلوه إلى مدينة البندقية، انظر: شارل ديل البندقية، ص ٢١ (الترجمة العربية للدكتورين أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر).

(٢) أغلب الظن أن هذه العمد الكثيرة كان بعضها من أنقاض الكنيسة المهدمة، وأن أكثرها حمـل إليـه مـن بقـ معبد السيرابيوم القريب، ويقوم مكان هذا المسجد الآن دير الآباء الفرنسسكان، وهناك على قبر الدكتـور شـليس داخـ المستشفى الأميرى الحالى عمودان من الجرانيت الأخضر يقال انهما نقلا إليه من هذا المسجد بعد أن خرب.

يسكنه الرهبان المسيحيون؛ ومنها الأديرة الكثيرة التى بنيت فى وادى النطرون [1]، وقد خرب معظمها مع مرور الزمن، ولازالت أطلالها تدل على مواقعها، وبقى منها قائمًا ومستعملاً حتى الآن أديرة أربعة هى:

١ - دير البراموس.

٢ - دير أنبا بشوى.

٣ - دير السريان.

٤ - دير أبى مقار.

---

(١) انظر: (عمر طوسون: أديرة وادى النطرون)، (وعلى مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١٧، ص ٤٨ - ٥٥) و (كتاب الرهبنة القبطية الذى أصدرته جمعية مارسينا العجايبى بالإسكندرية، سنة ١٩٤٨م).

الباب الأول

فى فجر الإسلام

الباب الأول

فى فجر الإسلام

تم لعمرو بن العاص فتح مصر يوم أن وقع الهدنة بينه وبين «قيروس Cyrus» فى ديسمبر سنة ٦٤١م (المحرم ٢١ هـ). ثم دخل جيشه الإسكندرية بعد أحد عشر شهرًا - وهى مدة الهدنة المتفق عليها - وهذا هو الفتح الأول للإسكندرية[١]، وقد تم صلحاً لا عنوة، غير أن الروم لم يلبثوا أن استشعروا ضعف المدينة بعد عزل عمرو عن ولاية مصر وتولية عبد الله بن سعد، فعادوا إليها فى أواخر سنة ٦٤٥م (أوائل سنة ٢٥ هـ).

وندب عمر لقتالهم، فهزمهم خارج المدينة، ثم تتبعهم إلى أسوارها، ويقال إنه عندما رأى الأسوار تقوم سدًا مانعًا بينه وبين المدينة ندم أن لم يقدم على هدمها عند دخوله المدينة فى المرة الأولى، وحلف لئن أظفره الله بالمدينة ليهد من أسوارها[٢]، ثم هاجم هذه الأسوار بمجانيقه من ناحيتها الشرقية إلى أن سلمت له، ومن هنا ترددت القالة فى بعض الكتب بأن عمرًا هدم جميع أسوار الإسكندرية بعد دخوله إليها، وهى فى الحقيقة قالة ظالمة، والراجح أن بعض أجزاء السور من جهتيه الشرقية والجنوبية قد هدمت أثناء الحصار والقتال بين العرب والروم إبّان هذا الفتح الثانى للمدينة.

غير أن هذه الأسوار أعيد بناؤها فى العصر العربى، وليس من المعروف على وجه التحديد متى أعيد بناؤها، وإن كانت بعض المراجع تشير إلى أنها بنيت ثانية فى عصر أحمد بن طولون (فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى = ٩م).

ولم تكن الإسكندرية وقت أن دخلها العرب فى ازدهارها القديم، بل لقد كانت عوادى الزمن قد أتت على بعض معالمها، كما كانت الحوادث السياسية قد أتت على بعض آخر، فإن النزاع بين الرومان والبطالمة، ثم النزاع بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين، ثم النزاع بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين، كل هذا كان له أثره الواضح فى تخريب الكثير من معالم المدينة الهامة التى كانت تميزها وتزينها فى العصر اليونانى، فالمدينة وقت دخول العرب كانت قد فقدت مكتبتها الكبرى ودار حكمتها، والقصور الملكية لم يكن لها بهاؤها القديم وعظمتها

(١) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٨٩ من الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٢ - ٤١٣.

السالفة[1]، ومعبد السيرابيوم والقيصريون كانت قد نالت منهما أيدى التخريب إبان النزاع الدامى بين المسيحية والوثنية وإن كانت قد أقيمت على أجزاء منهما كنيستان كبيرتان.

ومع هذا كله فقد بهرت المدينة أعين العرب عند رؤيتها ورؤية مبانيها، فوصفوها وصف المعجب المشدوه، وأشاروا أكثر ما أشاروا إلى معالمها البارزة ومبانيها المميزة، كالمنارة وعمود السوارى وكنيسة القيصريين، ومسلات كليوباترة، وقصور المدينة، وحماماتها، وصهاريجها، وشوارعها المكسوة بالمرمر والرخام، وكثرة ما بها من عمد، وأخيرًا أسوارها وحصونها وأبراجها[2].

وقد انكمشت المدينة فى أوائل العصر العربى عما كانت فى العصور القديمة فلما أعيد بناء السور روعى أن يضم إليه المنطقة الآهلة بالسكان فقط وهى التى تحتاج إلى الدفاع عنها، وترك خارجه منطقتان كبيرتان فى شرقى المدينة وجنوبيها. أما المنطقة الشرقية فكانت تقوم عليها مقابر اليونان والرومان ولا حاجة لأن تضمهما الأسوار إلى المدينة، وأما المنطقة الجنوبية فكانت تضم بعض المزارع وبقية من أطلال معبد السيرابيوم وأطلال ما كان يحيط به من مبان وبيوت، يشرف عليها جميعًا عمود السوارى، ولم يكن هناك داع لصرف الأموال الطائلة لتوسيع محيط السور عند إعادة بنائه ليضم كل هذه الأطلال.

ويتضح الفرق بين مساحتى المدينة قبل الفتح العربى وبعده فى الخريطة التى رسمها الفلكى باشا لتخطيط أسوار المدينة فى العصرين، وقد بنيت للأسوار الجديدة أبواب تقابل الأبواب القديمة، وإن كانت قد سميت بأسماء جديدة، فالباب الذى بنى فى الشرق مقابل باب الشمس سمى باب رشيد، أو باب القاهرة، لأنه كان يؤدى إلى طريق رشيد، ومنها إلى القاهرة، والباب الذى بنى فى الغرب مقابل باب القمر سمى باب القرافة، لأنــه كان يؤدى إلى جبانة هناك، وكان لا يفتح إلا يوم الجمعة، ثم بنى فى الجنوب باب سمى «باب سدرة»[3] فقد كانت تقوم

---

(١) بتلر، المرجع السابق، ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر الفصل القيم الذى كتبه بتلر فى كتابه السابق بعنوان «وصف الإسكندرية عند الفتح»، ص ٣١٩ – ٣٤٧، وما به من مراجع، والمقريزى (الخطط، ج ١ ص ٢٣٢ – ٢٧٣).

(٣) كان يطلق على هذا الباب فى العصرين الأيوبى والمملوكى «باب البهار» فقد كان بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم خليج الإسكندرية، حيث تفرغه خارج الإسكندرية عند هذا الباب. وفى الأوقات التى كانت تتعطل فيها الملاحة فى الخليج كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال تأتى عبر الطريق البرى وتدخلها من باب البهار لا من باب رشيد. انظر: (الدكتور جمال الدين الشيال، الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى) فصل من كتاب الإسكندرية الذى أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية فى سنة ١٩٤٩م ص ٩٦ – ١٠٣.

إلى جانبه شجرة عاتية من أشجار السدر، (أو باب العمود لإشرافه على عامود السوارى)، أما باب البحر فى شمال المدينة فقد بقى كما هو يشرف على الميناء الشرقى.

هذا أهم تغيير أصاب المدينة فى العصر الإسلامى الأول، يضاف إليه ما استحدث فيها من مساجد، تبعًا لوجود الحامية العربية بها، وازدياد عددها مع مرور الزمن، وتبعًا لانتشار الدين الإسلامى بين أهليها[1]. وقد أنشئ بعض هذه المساجد إنشاء، وأقيم البعض الآخر على أطلال المعابد أو الكنائس القديمة، وتشير مراجع العصر الإسلامى الأول إلى ستة من هذه المساجد، ولكنها لا تحدد مواقعها تحديدًا قاطعًا، وهى:

١ - مسجد سليمان عند القيسارية.

٢ - مسجد الخضر.

٣ - مسجد ذى القرنين (ولعله بنى بالقرب من قبر الإسكندر، ولهذا سمى بهذا الاسم).

٤ - مسجد عمرو بن العاص، وتنص المراجع على أنه بنى فى وسط المدينة، وكان يسمى أيضًا «مسجد الرحمة» لأنه بنى فى المكان الذى رفع فيه عمرو السيف عن أهل المدينة حين دخلها عنوة فى فتحه الثانى.

٥ - مسجد موسى، وقد بنى بالقرب من المنارة.

٦ - مسجد المنارة، وقد بنى داخل المنارة نفسها ليكون مصلى للجند المرابطين بها.

وقد أعجب عمرو بالمدينة ومبانيها حتى ليقال إنه كتب إلى الخليفة عمر يصفها له بقوله:

«لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة»[2].

كذلك يروى أنه لإعجابه بها فكر فى أن يتخذها عاصمة له، وأنه نظر إلى مبانيها بعد الفتح وقال: «منازل قد كفيناها»[3]، وكتب إلى عمر يعلن إليه هذه الرغبة، لولا أن عمر أرسل إليه

Combe: *(Les Levés de gravier d'Ortiéres a Alexandrie (1686). Dans; (Bulletin of the Faculty of arts, Farouk Ist. University Alex.). vol. I, 1943 P. 52-67).*

(١) انظر: مقال الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة «الإسكندرية من العصر العربى إلى نهاية العصر الفاطمى»، كتاب الغرفة التجارية عن الإسكندرية، ١٩٤٩م ص ٨٦.

(٢) بتلر ص ٣١٩ وما به من مراجع، وانظر أيضًا: (السيوطى، حسن المحاضرة ج ١ ، ص ٥٤).

(٣) السيوطى، نفس المرجع، ج ١ ، ٥٧.

ينصحه باختيار مكان آخر لا يفصل بينه وبين بلاد العرب ماء، فتحول عمرو منذ ذلك الحين عن الإسكندرية إلى الفضاء المجاور لحصن بابليون وبنى عليه عاصمته الجديدة الفسطاط[1].

ولم يؤثر تأسيس الفسطاط فى مدينة الإسكندرية، بل لقد حافظت على مكانتها القديمة واعتبرت منذ ذلك الحين العاصمة الثانية لمصر، وظلت دائمًا موضع العناية من الخلفاء وولاة مصر، فقد كانت فى نظرهم جميعًا ثغرًا من أهم الثغور الإسلامية التى يجب العناية بها وبحصونها وبوسائل الدفاع عنها.

لهذا لا نعجب إذا رأينا المدينة تنمو فى هذا العصر العربى الأول ويزداد عمرانها، فقد استقر بها عدد كبير من العرب، ونزلوا بيوتها القديمة، أو بنوا لأنفسهم بيوتًا جديدة تشير المراجع إلى بعضها، كالبيت الذى بناه الزبير بن العوام بعد الفتح، والمنزل الكبير الذى كان ينزله خمارويه بن أحمد بن طولون عند مريوط بضواحي الإسكندرية.

فالإسكندرية كانت تعتبر ثغرًا من الثغور الإسلامية الهامة ورباطاً كبيرًا ترابط فيها منذ دخلها المسلمون حامية مسلحة كبيرة، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الإسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ثم يستبدلون بربع آخر، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الإسكندرية، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين، وحاولوا الهجوم عليها لاستردادها.

وكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد نقض الروم يقول:

«قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فالزم الإسكندرية رابطتها، ثم أجر عليهم أرزاقهم، وأعقب منهم فى كل ستة أشهر».

وقد بلغت حامية الإسكندرية فى عهد معاوية سبعة وعشرين ألف جندى منهم عشرة آلاف من أهل الشام، وخمسة آلاف من أهل المدينة ترابط دائمًا فيها لحمايتها.

ومن الأقوال المأثورة:

«أربعة أبواب من أبواب الجنة مفتحة فى الدنيا: الإسكندرية، وعسقلان، وقزوين، وجدة»

---

(١) جمال الدين الشيال (الفسطاط، كيف اختير مكانها، ولم سميت بهذا الاسم) مقال بمجلة الرسالة، العدد ٦٤٠، ٨ أكتوبر ١٩٤٥م، وقد نشر هذا البحث أخيرًا ضمن فصول كتاب للمؤلف ظهر أخيرًا بعنوان «دراسات فى التاريخ الإسلامى»، بيروت، ١٩٦٥م.

ومنها: أن الإسكندرية..

«كنانة الله يحمل فيها خير سهامه»

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى:

«لما نعى إلى ابن عمى خالد بن يزيد - وكان توفى بالإسكندرية - لقينى موسى ابن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد متفرقين، كلهم يقولون: هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك».

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوع من الجهاد، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد.

وكانت حامية الإسكندرية مقسمة إلى عرافات، ولكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه، فتكون الدار لقبيلتين أو ثلاث، وللمدينة أبراج عالية يقف عليها الحراس، وتسمى مثل هذه الأبراج: المحارس، أو المناظر، أو المراقب، أو الطلائع، فإذا بدا فى أفق البحر شىء من سفن العدو أعطى حراس المراقب الإنذار، فاجتمع الجند من كل طائفة فى عرافتها، وكان بالرملة (الرمل حاليًا) أربعة آلاف فارس للنجدة.

وكانت المنارة الكبرى فى جزيرة فاروس أعلى هذه الأبراج وأهمها لإشرافها على البحر مباشرة، وكان المسلمون يحتفلون حولها كل عام احتفالا خاصًا يعتبر إيذانا ببدء موسم الجهاد والاستعداد، فكان إذا حل فصل الربيع خرج سكان المدينة فى يوم خاص يسمى «يوم خميس العدس»[1] إلى المنارة فيقيمون فيها أو حولها يلهون ويلعبون ويأكلون المآكل المختلفة - ومن بينها العدس - فإذا انتهى اليوم عادوا إلى المدينة، وبدأ الجنود المرابطون يحترسون من ذلك اليوم على البحر والمدينة من هجوم العدو.

ومن معالم المدينة فى هذا العصر - غير ما ذكرنا - الدور الحكومية المختلفة، تشير المراجع التاريخية إلى وجودها، غير أنها للأسف لا تحدد مواضعها، فمنها:

- دار الإمارة[2] حيث كان ينزل الوالى.

- دار الصناعة - أى صناعة السفن - وكانت من أوائل ما أقيم من منشآت فى المدينة، فقد أنشئت فى عهد الوالى العربى الثانى عبد الله بن سعد بن أبى السرح لبناء السفن التى اشتركت

---

(١) وصحته «خميس العهد»، وهو من أعياد القبط القديمة، انظر: (المقريزى، الخطط، ج ٣، ص ٣٩٢).

(٢) ذكر (الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٦) أن والى مصر (سنة ٤٣هـ - ٤٤هـ) عتبة بن أبى سفيان «خرج إلى الإسكندرية مرابطًا، فابتنى دار الإمارة التى فى الحصن القديم (؟)».

فى موقعة ذات الصوارى، أول موقعة بحرية انتصر فيها العرب على الروم، ولعلها أقيمت حيث كانت توجد دار الصناعة الرومانية القديمة فى الميناء الشرقى وإن كان النويرى يذكر أن الإسكندرية كان بها فى القرن الثامن الهجرى داران للصناعة، إحداهما فى الميناء الشرقى والثانية فى الميناء الغربى.

– دار الطراز[1]، وهى الدار الملكية لصناعة المنسوجات، وأغلب الظن أن الإسكندرية الرومانية كانت تعرف هذا النوع من المصانع، وأن دار الطراز العربية ما هى إلا استمرار لهذا المصنع الرومانى القديم بعد إدخال التعديلات المناسبة على نظامه.

عرف خلفاء العصر الأول للإسكندرية هذه المكانة الممتازة – حربيًا عمرانيًا واقتصاديًا - ولهذا أوشك بعضهم أن يعتبرها إمارة خاصة، فكانوا يولون عليها من قبلهم أمراء يكادون يستقلون عن ولاة مصر، كما حدث حين ولى أحمد بن طولون – أول أمره – على مصر كلها دون الإسكندرية، فلما توفى باكباك، وعين أماجور – أحمد بن طولون – خلفًا له ضم إليه ولاية الإسكندرية كذلك.

وقد شاركت الإسكندرية – بحكم مركزها هذا – مشاركة فعالة فى معظم الأحداث السياسية التى شهدتها مصر فى العصر العربى الأول، وخاصة فى حوادث النزاع بين أمراء مصر الذين حكموها فى العصر العباسى الثانى، كما بدأت منذ ذلك العصر تتصل بحوادث المغرب والأندلس – بحكم موقعها الجغرافى – وخير مثال لذلك استضافتها للأندلسيين[2] الذين طردهم من الأندلس الحكم الربضى بعد ثورات الربض المشهورة، والحوادث التى قام بها هؤلاء الأندلسيون أثناء مقامهم فى المدينة إلى أن جلوا عنها أثر هام فى تاريخها.

---

(١) انظر: الدكتور جمال الدين الشيال، المقال السابق (الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى). و (نفس المؤلف، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩م، ص ٦٩ – ٧٥) والدكتور محمد عبد العزيز مرزوق (الزخرفة المنسوجة فى العصر الفاطمى). Inc. Isl. Art. Tiraz

(٢) عن أخبار هؤلاء الأندلسيين انظر: (الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٥٨، ١٦١ – ١٦٥) و (فازيليف، العرب والروم، الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة – ١٩٥٠م، ص ٥٣ – ٥٧، وما به من مراجع)، (وصديق شيبوب، معارك الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٦٢م؟، الفصل المعنون: غزوة الربضيين، وقد سبق أن نشر هذا الفصل بعنوان: جمهورية أندلسية فى مجلة الكتاب، فبراير ١٩٤٩م).

الباب الثانى

الإسكندرية فى العصر الفاطمى

الفصـل الأول: المنشآت الدينية والعلمية.

الفصل الثانى: الإسكندرية أول مدينة مصرية أنشئت فيها المدارس فى العصر الإسلامى.

الفصل الثالث: التقدم العمرانى لمدينة الإسكندرية فى العصر الفاطمى.

الفصل الرابع: مشاركة الإسكندرية فى الأحداث السياسية الفاطمية.

الفصل الأول

المنشآت الدينية والعلمية في العصر الفاطمي

بدأت الإسكندرية تتصل بالمغرب اتصالاً وثيقًا منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (١٠م) حين نجحت الدولة الفاطمية فى إقامة ملك جديد لها على أنقاض ملك الأغالبة فى إفريقية (تونس)، فقد كانت الإسكندرية الهدف الأول لحملات الفاطميين الأولى على مصر - برًا وبحرًا -، وبها نزلت جنود هذه الحملات الأولى الفاشلة وأساطيلها، وبها نزلت أول ما نزلت جنود وأساطيل الحملة الفاطمية الرابعة التى نجحت فى فتح مصر وامتلاكها [1].

ومنذ ذلك الحين أخذت الإسكندرية - شأنها فى ذلك مصر جميعًا - تزدهر ازدهارًا عظيمًا، فأصبحت مصر مقر الخلافة الفاطمية، كما أصبحت الإسكندرية مقر أسطول هذه الخلافة، وللفاطميين عناية كبيرة بالأسطول منذ قامت دولتهم فى إفريقية، وهى بعد هذا كله الطريق إلى منشأ ملكهم فى المغرب الذى أصبح ولاية تابعة لمصر، فلا عجب إذن أن عنى الفاطميون بالإسكندرية عناية خاصة. فأقاموا بها المنشآت الكثيرة، ولبعض هذه المنشآت أهمية كبرى لأنها تساعد على تحديد معالم المدينة وطبوغرافيتها، وأهم هذه المنشآت مما ذكره لنا المؤرخون:

١ - جامع العطارين:

ويخطئ بعض المؤرخين فيذكر أن الذى بناه هو بدر الجمالى، وزير الخليفة المستنصر، ولكن الصحيح أنه كان يقوم مكانه مسجد قديم أنشئ على أنقاض كنيسة قديمة، فلما زار بدر الجمالى الإسكندرية فى سنة ٤٧٧هـ وجد هذا المسجد مهدمًا، فأمر بتجديد بنائه والصرف عليه من أموال أخذها من أهل البلد، يؤكد ما ذكرنا النص الذى تحمله اللوحة الرخامية التذكارية التى ثبتها بدر فى الجامع لتأريخ هذا الحادث، والتى لا تزال موجودة فى الجامع إلى اليوم أسفل المئذنة إلى يسار الداخل من الباب الشمالى الشرقى، ونص ما عليها:

---

(١) لاستيعاب تفاصيل هذه الحملات انظر (المقريزى، اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨م) و (الدكتور حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر)، ولنفس المؤلف بالاشتراك مع الدكتور طه شرف: (عبيد الله المهدى، والمعز لدين الله).

«بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكـاة، ولم يخش إلا الله﴾ [1]، مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام، وناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابًا، فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفى إلى الله تعالى، وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة».

وتوجد حاليًا لوحة أخرى أعلى هذا الباب الشمالى الشرقى من الخارج تنسب هذا المسجد ضريح ينسب إلى محمد بن سليمان بن خالد بن الوليد - الصحابى الكبير - كما يوجد فى داخل المسجد ضريح ينسب إلى محمد بن سليمان هذا، وليس هذا بصحيح كذلك، والحقيقة أن صاحب هذا الضريح عالم مغربى متأخر هو محمد بن سليمان بن أحمد بن يوسف الملقب بزين الدين، وأصله من المغرب الأقصى، قدم به والده إلى الإسكندرية وهو صغير، واستوطنها إلى أن مات بها، وبعد وفاته أقبل الابن على العلم، وأخذ عن تلاميذ الحافظ السلفى وعن المحدث المشهور والعلامة الكبير عبد الوهاب بن فتوح السكندرى المتوفى سنة ٦٤٨هـ، ولهذا نبغ فى علم الحديث، وكان يلقى دروسه فى هذا المسجد، واتخذه مسكنًا له إلى أن توفى فى ١٤ ذى الحجة من سنة ٧١٧هـ فدفن فيه.

وقد أشار المقريزى فى «مخطوطة اتعاظ الحنفاء» إلى بناء بدر الجمالى لهذا الجامع أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية فى سنة ٥٧٧هـ، وقال إن البناء فرغ منه فى شهر ربيع الأول، وأقيمت فيه الجمعة، واستمرت تقام به إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين، فأمر ببناء جامع جديد، ونقل الخطبة من جامع العطارين إليه.

٢ - مسجد أبى بكر الطرطوشى:

بناه خارج باب البحر بعد سنة ٥١٠هـ فى خلافة الآمر الفاطمى ووزارة المأمون البطائحى، انفرد بذكر هذا المسجد المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى النسخة الخطية الكاملة الوحيدة من كتابه «اتعاظ الحنفا» التى عثرنا عليها أخيرًا فى مكتبة (طوب قبو سراى) باستانبول، والتى نعدها الآن للنشر، فقد ذكر بها أن الطرطوشى انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة فى سنة ٥١٠هـ لزيارة الوزير المأمون البطائحى، وليقدم له كتابه الذى ألفه باسمه وهو كتاب «سراج الملوك»، فأكرمه المأمون وخلع عليه، وفى ذى الحجة من هذه السنة حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير، وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد جامع بظاهر الثغر على البحر،

---

(١) سورة التوبة الآية ١٨

فكتب إلى ابن حديد (قاضي الإسكندرية) «بموافقة الفقيه على موضع يتخيره، وأن يبالغ فى إتقانه وسرعة نجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة، وتوجه فبنى المسجد المذكور عند باب البحر». وهذا المسجد من المساجد التى زالت وعفت آثارها.

٣ - مسجد المؤتمن أخى المأمون البطائحى:

وبعد هذا السنة بقليل بنى مسجد آخر هام، بناه المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين، أبو تراب حيدرة، أخو الوزير المأمون البطائحى فى المحجة الكبرى - وهى ما نرجح أن تكون الشارع الأكبر المتد من باب رشيد إلى باب البحر -، وقد بنى هذا المسجد فى سنة ٥١١هـ، أو ما بعدها، ففى تلك السنة عين المؤتمن واليًا على الإسكندرية والأعمال البحرية، وقد ذكر المقريزى أنه بنى هذا المسجد أثناء مقامه فى هذا الثغر.

٤ - تجديد سور الإسكندرية:

جدد هذا السور فى آخر عهد الخليفة الآمر فى سنة ٥١٧هـ، فقد قال المقريزى عند ذكر حوادث هذه السنة: «وفيها جددت عمارة سور الإسكندرية» وإن كان لم يفصل أخبار هذا التجديد.

٥ - مدرسة الفقيه المحدث أبى الطاهر بن عوف:

وقد بناها له فى سنة ٥٣٣هـ رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ الفاطمى وأسند إليه التدريس بها.

٦ - مدرسة الحافظ السلفى:

وقد بناها له فى ٥٤٤هـ العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر، وفوض تدريسها إليه.

٧ - برج ضرغام عند باب البحر:

ذكره المقريزى فى حوادث سنة ٥٥٧هـ، قال:

> «وفيها شاد الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية، فعرف ببرج ضرغام».

وقد لعب هذا البرج دورًا كبيرًا فى الدفاع عن المدينة ضد كل المغيرين الذين حاولوا الهجوم عليها، ويبدو واضحًا فى الخريطة التى رسمت للمدينة فى القرن الخامس عشر الميلادى.

الفصل الثانى

الإسكندرية أول مدينة مصرية

أنشئت فيها المدارس فى العصر الإسلامى

والرأى المعروف المتداول أن حركة إنشاء المدارس فى مصر الإسلامية بدأت مع قيام الدولة الأيوبية فيها، وذلك حينما أسس صلاح الدين يوسف بن أيوب وأفراد أسرته، وكبار رجال دولته المدارس المختلفة فى الفسطاط والقاهرة وغيرها من مدن مصر.

ولكننا نرى أن المدارس أنشئت أول ما أنشئت فى مدينة الإسكندرية وفى العصر الفاطمى، أى قبل إنشاء صلاح الدين لمدارسه فى الفسطاط والقاهرة، ولإثبات هذه الحقيقة نناقش الأقوال التى أوردها المؤرخون حول هذا الموضوع.

كان صلاح الدين بإنشائه هذه المدارس يتبع سياسة موضوعة، وينفذ خطة مدروسة للقضاء على المذهب الشيعى، ونشر المذهب السنى، مقتفيًا فى ذلك سياسة أستاذه نور الدين محمود بن زنكى، ففى سنة ٥٦٦هـ أنشأ صلاح الدين – وهو بعد لا يزال وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد – مدرسته الناصرية فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى، يقول المقريزى فى حديثه عن هذه المدرسة: «وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة»، ثم يعقب على هذا بقوله: «وهى أول مدرسة عملت بديار مصر»، وهذه الجملة الأخيرة تحتاج إلى تحقيق وتصحيح، ذلك أن ابن خلكان يقول فى ترجمته للعادل أبى الحسن على بن السلار – وزير الخليفة الظافر الفاطمى:

> «وكان ظاهر التسنن، شافعى المذهب، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به، ثم صار العادل المذكور واليابه (أى بالثغر) احتفل به وزاد فى إكرامه، وعمر له مدرسة فوض تدريسها إليه، وهى معروفة به إلى الآن، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعيين سواها».

ومن الممكن أن يقال – اعتمادًا على نص ابن خلكان هذا – أن ابن السلار – لا صلاح الدين – هو أول من أوجد المدارس بديار مصر، وأن الإسكندرية هى أول مدينة مصرية عرفت المدارس، وذلك لأن ابن السلار كان – كما يذكر ابن خلكان – سنيًا شافعيًا، كما كانت له اتصالات سياسية بنور الدين محمود بن زنكى فى الشام.

ونحن نستطيع أن نقول إن قول ابن خلكان لا يزال يحتاج - كما احتاج قول المقريـزى - إلى تحقيق وتصحيح.

حقيقة أن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت المدارس، ولكن مدرسة السلفى لم تكن أول مدرسة أنشئت فى الإسكندرية، وإنما سبقتها مدرسة أخـرى هـى المدرسـة الحافظيـة التـى أنشأها رضـوان بـن ولخشـى - وزيـر الخليفـة الحـافظ الفـاطمى - للفقيـه المـالكى أبـى الطـاهر بن عوف، وقد بنيت هذه المدرسة الحافظية قبل المدرسة السلفية باثنتى عشرة سنة، فقد بنيـت الأولى فى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م - ١١٣٨م)، وبنيت الثانية فى سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م).

وأبو الطاهر بن عوف [١] هو هـو إسمـاعيل بـن مكـى بـن إسمـاعيل بـن عيسـى، بـن عـوف الزهرى، وينتهى نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل، وقد كان شيخ المالكية فـى مدينة الإسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢م) دون منازع، فقد ولـد فـى سـنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وتوفى سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م) عن ست وتسعين سنة.

---

(١) انظر ترجمته المفصلة فى: (جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٠٥ - ١٢٧).

الفصل الثالث

التقدم العمرانى لمدينة الإسكندرية

فى العصر الفاطمى

وليس أدل على عمران المدينة وما كانت تزدان فى العصر الفاطمى من دور وقصور فخمة من الوصف الذى حفظه المقريزى فى كتابه الخطط لدار أحد القضاة بها، وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد، فقد وصف القاضى بأنه كان ذا مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة فى كرمه، ومدحه كبار شعراء الإسكندرية فى عصره ومنهم ظافر الحداد وأمية ابن أبى الصلت وغيرهما وذكر المقريزى فى وصفه لدار هذا القاضى أنه كان بها بستان جميل به نافورة كبيرة تتكون من قطعة واحدة من الرخام البديع ينحدر فيها الماء فتكون كالبركة فى اتساعها، وذكر المقريزى أن صاحبها كان يباهى بها أهل العصر إلى أن علمت بها البدوية حبيبة الخليفة الآمر الفاطمى فطلبتها منه، ولم يستطع القاضى ابن حديد إلا أن يستجيب لرغبتها ولأمر الخليفة، وحملت النافورة إلى القاهرة، وركبت فى بستان «الهودج»، وهو القصر الجميل الذى بناه الخليفة الآمر لمحبوبته فى جزيرة الروضة، وتألم ابن حديد لفقده هذه النافورة ألما بالغًا، ومازال يتقرب للبدوية وحاشيتها بالهدايا إلى أن أمرت برد النافورة إليه.

ويروى المقريزى أثناء كلامه عن القاضى ابن حديد حادثة أخرى يستدل بها على مبلغ ما كلن يتمتع به أعيان الإسكندرية وأثرياؤها من حياة كلها ترف وغنى ورفاهية، وما كانت تضمه قصورهم من تحف جميلة وطرف رائعة، قال:

«وكان هذا المكين متوليًا قضاء الإسكندرية ونظرها فى أيام الآمر، وبلغ من علو همته وعظم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة - أخا الوزير المأمون البطائحى - لما قلده الآمر ولاية ثغر الإسكندرية فى سنة سبع عشرة وخمسمائة، وأضاف إليه الأعمال البحرية، ووصل إلى الثغر، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضى إلى داره لإحضار دهن شمع، فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا أن أحضر حقًا مختومًا، فك عنه فوجد فيه منديلاً لطيفًا مذهبًا على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر: بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور، وبيت دهن بعنبر طيب، ولم يكن فيه شىء مصنوع لوقته، فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن

والحاضرون من علو همته، فعندما شاهد القاضي ذلك بالغ في شكر إنعامه وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فكان جواب المؤتمن: قد قبلته منك لا لحاجة إليه، ولا لنظر في قيمته، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها، وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار».

ويعلق المقريزي على هذا بقوله:

«فانظر - رحمك الله - إلى من يكون دهن الشمع عنده في إناء قيمته خمسمائة دينار، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات..».

وشبيه بقصر ابن حديد قصور كثيرة رائعة كانت تزدحم بها الإسكندرية في العصر الفاطمي، ومنها قصر بني خليف - إحدى الأسر الكبيرة في المدينة، وقد وصفه على بن ظافر الأزدي وصفًا رائعًا في كتابه «بدائع البدائه»، وأثبت أبياتا من الشعر قالها ابن قلاقس الشاعر السكندري في وصف هذا القصر وجمال غرفه وشرفاته والبستان المحيط به.

الفصل الرابع
مشاركة الإسكندرية فى الأحداث السياسية

ولمكانة الإسكندرية كثغر حربى وميناء تجارى، ولازدياد عدد المغاربة بها فى هذا العصر الفاطمى، ولقربها من المغرب - موطن الدولة الفاطمية الأول - ظلت تشارك فى الأحداث السياسية الهامة التى حدثت فى عصر هذه الدولة:

- فلما حدثت المجاعة الكبرى فى عهد المستنصر نتيجة لقصور فيضان النيل، واشتد الغلاء، وعدمت الغلال، وانتشر الوباء، وضاعت هيبة الخليفة، وانتشرت الفتن فى أنحاء مصر، استعان الخليفة المستنصر بواليه على عكا أمير الجيوش بدر الجمالى، فاستدعاه إليه، وعينه وزيرًا، وعهد إليه بمعالجة الأزمة، والقضاء على الشاغبين ومثيرى الفتن.

وبدأ بدر الجمالى فى سنة ٤٦٧هـ بالبلاد الواقعة شرقى فرع دمياط فتتبع المفسدين وقضى عليهم، ثم انتقل إلى البحيرة والإسكندرية، وكانت طائفة الملحية - وهى إحدى طوائف الجيش الفاطمى - قد أثارت الفتنة فى المدينة، وأعلنت العصيان، فحاصر بدر الجمالى الإسكندرية أيامًا إلى أن استولى عليها عنوة، وقتل من الملحية عدة كثيرة.

- وفى سنة ٤٧٧هـ خرج على بدر الجمالى ابنه الأوحد، وانضم إليه جماعة من العسكر والعربان، ولجأ إلى مدينة الإسكندرية وتحصن بها، فسار إليه أبوه وحاصره مدة، وألح عليه بالقتال حتى هزمه ودخل المدينة، وخلال الزيارة، جدد بدر الجمالى مسجد العطارين بعد أن رآه مهدمًا كما سبق أن ذكرنا.

- وعند موت الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٧هـ بادر وزيره الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى فأجلس أبا القاسم أحمد أصغر أولاد المستنصر على عرش الخلافة، فغضب الابن الأكبر نزار، وفر إلى الإسكندرية وفى صحبته ابن مصال أحد قواد الدولة، وهناك اتصل به الأمير أفتكين والى المدينة ووعده أن يوليه الوزارة إن هو وقف إلى جانبه، فاستجاب لدعوته، وأقنع سكان المدينة بمبايعته، ولقبه بالمصطفى لدين الله.

وخرج الأفضل شاهنشاه بجيش من القاهرة واتجه إلى الإسكندرية، وجرت بين الفريقين حروب انتصر فيها نزار، وعاد الأفضل إلى القاهرة وقوى أمر نزار، واستولى على بلاد الوجه البحرى، ولكن الأفضل جهز جيشًا جديدًا وحاصر الإسكندرية حصارًا شديدًا، فاشتد الضيق بنزار وصحبه، فجمع ابن مصال ماله، وفر فى البحر إلى بلاد المغرب، ففت ذلك فى عضد

نزار، وانتهى الأمر بهزيمته، ودخل الأفضل الإسكندرية، وقبض على نزار وأرسله إلى القاهرة حيث قتله بها، واستقر أبو القاسم أحمد خليفة ولقب بالمستعلى، وانقسمت الشيعة الإسماعيلية منذ ذلك الوقت إلى فريقين:

الإسماعيلية النزارية، والإسماعيلية المستعلية، وكان هذا الانقسام المذهبى من أهم الأسباب التى أدت إلى أضعاف الدولة وانحلالها وسقوطها بعد ذلك.

– ولما توفى الخليفة الحافظ فى سنة ٥٤٤هـ ولى الخلافة بعده ابنه الظافر بأمر الله، فأقام الأمير نجم الدين بن مصال وزيرًا له، فلم يرض الأمير على بن السلار – والى الإسكندرية والبحيرة يومئذ – بوزارة ابن مصال، وحشد جيوشه وسار بها إلى القاهرة، ففر ابن مصال، واستقر ابن السلار فى الوزارة، ولقب بالعادل.

وفى أيام الخليفة الفائز كان صاحب السلطان الفعلى هو وزيره الصالح طلائع بن رزيك، وفى عهده ثار أحد رجاله وهو طرخان بن سليط بن طريف والى الإسكندرية، وجمع حوله عربان البحيرة، وخلع طاعة الصالح، ولقب نفسه بالملك الهادى، وانضم إليه أخوه إسماعيل، وخرج الأخوان بجموعهما من الإسكندرية، وعسكرا عند دمنهور، فأرسل إليه الصالح جيشاً على قيادته الأميران: المظفر عز الدين حسام، ومجد الخلافة أسد الدين ورد، وهزم طرخان وفر إلى الجيزة، فاختفى بها إلى أن قبض عليه، وصلب هو وأخوه إسماعيل على باب زويلة. حدثت هذه الفتنة فى سنة ٥٥٥هـ وقد علق عليها المقريزى بقوله:

«وكان أبو طرخان فرانا، فترقى فى أيام الفتن حتى ولاه الصالح الإسكندرية فى سنة ٥٥٣هـ».

وكان لهذه الحوادث جميعًا – دون شك – أثر فى تخريب المدينة أو العناية بها، بدليل قول المقريزى عند كلامه على خروج الأفضل لقتال نزار فى الإسكندرية سنة ٤٨٨هـ:

«وحاصرها ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة».

وقد شارك ميناء الإسكندرية مشاركة فعالة وقوية فى الدفاع عن شواطئ مصر، فعناية الفاطميين بالأساطيل قديمة منذ كانوا فى المغرب ومنذ أنشئوا دار صناعتهم الأولى فى مدينة المهدية، وقد استأنفوا عنايتهم بوسائل الدفاع البحرية بعد انتقالهم إلى مصر فعنوا عناية كبرى بدور الصناعة فى الإسكندرية ودمياط، وفى النيل عند جزيرة الروضة والمقس، وبنوا الأساطيل الضخمة، ومن الإسكندرية كانت تخرج هذه الأساطيل لمقاتلة سفن الأعداء أو للغزو فى البحر. وكانت الدولة الفاطمية تحتفل احتفالات رائعة بعودة هذه الأساطيل المظفرة.

وفى المراجع التاريخية بعض الأمثلة التى تعطينا صورة واضحة عن الدور الذى لعبه أسطول الإسكندرية فى حماية المدينة وفى الغزو البحرى أثناء العصر الفاطمى، قال المقريزى فى كتابه «اتعاظ الحنفا» عند الكلام عن حوادث ربيع الأول سنة ٣٨٣هـ، أى فى عهد الخليفة العزيز بالله:

«وكانت وقعة فى البحر مع الروم بنواحى الإسكندرية، أسر فيها من الروم سبعون.. ووردت مراكب الروم إلى الإسكندرية، فسار بها إليها العسكر فى البر والأسطول فى البحر، فولوا من غير حرب إلى الشام، فسار الأسطول إليهم، وزيد فيه ثمانية عشر مركبًا مشحونة بالسلاح والمقاتلة».

وقال فى وصف الاحتفال بعودة هذا الأسطول منتصرًا فى جمادى الأولى سنة ٣٨٤هـ.

«وصل غزاة البحر إلى القاهرة بمائة أسير، فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة، وركب العزيز وابنه منصور وشق الشوارع، ثم ركب فى عشارى (نوع من السفن النيلية) ومعه العشاريات سائرة إلى المقس، ثم ركب من المقس إلى القصر فكان يوماً عظيما لم ير بمصر مثله، وقال فيه الشعراء».

وممن عنى بالمدينة من خلفاء الفاطميين الخليفة الحاكم بأمر الله فقد ذكر المقريزى أنه: «أطلق لحفر خليج الإسكندرية فى سنة أربع وأربعمائة خمسة عشر ألف دينار، فحفر كله».

ولكن المقريزى يذكر أن الحاكم - رغم عنايته هذه بحفر خليج الإسكندرية - قد أمر بهدم جامع عمرو بن العاص بهذه المدينة فى شعبان سنة ٣٩٤هـ، ومع هذا لم يذكر السبب الذى دفعه إلى هدمه.

الباب الثالث
في العصر الأيوبى

الباب الثالث

فى العصر الأيوبى

الفصل الأول: الإسكندرية فى عصر صلاح الدين حربيًا وعلميًا وعمرانيًا

- محاصرة صلاح الدين داخل الإسكندرية.
- داعية شيعى فى الإسكندرية.
- هزيمة أسطول صقلية على شواطئ الإسكندرية.
- زيارة صلاح الدين الأولى للإسكندرية: عنايته بالأسطول وترميم أسوار المدينة.
- الأعمدة الأثرية تلقى فى البحر لحماية الميناء الشرقى.
- صلاح الدين وأولاده يتلقون العلم على الحافظ السلفى.
- زيارة صلاح الدين الثانية للإسكندرية وأخذه العلم عن الفقيه الطاهر بن عوف.
- صلاح الدين والطاهر بن عوف.
- منشآت صلاح الدين فى الإسكندرية.
- صلاح الدين يبنى مسجدًا جديدًا فى الإسكندرية.
- كثرة المساجد فى المدينة فى أقوال الرحالة.
- رعاية صلاح الدين للوافدين من المغاربة.

الفصل الثانى: تجارة الإسكندرية الداخلية والخارجية فى عهد صلاح الدين.

الفصل الثالث: الإسكندرية فى عهود خلفاء صلاح الدين من ملوك الدولة الأيوبية.

١ - فى عهد العزيز عثمان.

٢ - فى عهد الملك العادل أبى بكر.

٣ - فى عهد الملك الكامل محمد.

٤ – فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب.

٥ – أمراء البيت الأيوبى والإسكندرية.

الفصل الرابع: الرحالة والمؤرخون الذين زاروا الإسكندرية فى العصر الأيوبى.

١، ٢ – بنيامين التطيلى وابن جبير الأندلسى.

٣ – المؤرخ أبو شامة.

٤ – الرحالة أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى.

٥ – الرحالة عبد اللطيف البغدادى.

٦ – المؤرخ عثمان بن إبراهيم النابلسى.

٧ – المؤرخ سبط ابن الجوزى.

الفصل الأول

الإسكندرية فى عصر صلاح الدين

حربيًا وعلميًا وعمرانيًا

يرتبط تاريخ مدينة الإسكندرية ارتباطًا وثيقًا بالحوادث التى أدت إلى سقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة صلاح الدين فى مصر، ففى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢ م) تسابقت جيوش نور الدين محمود بن زنكى وجيوش الصليبيين فى الشام إلى مصر تريد أن تنتهز فرصة انحلال الدولة الفاطمية وضعفها وتستولى على تراث ملكها فى مصر.

١ - محاصرة صلاح الدين داخل الإسكندرية:

وكان يقود جيوش نور الدين أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد وفدت هذه الجيوش إلى مصر ثلاث مرات، وقد لعبت الإسكندرية دورًا خطيرًا هامًا فى أحداث الغزوة الثانية.

ففى سنة ٥٦٢ هـ أعد أسد الدين شيركوه جيشًا كبيرًا وخرج به من الشام قاصدًا مصر بعد أن شاهد أثناء حملته الأولى من ضعفها ما أغراه وما أخافه على مصيرها إن هى وقعت فى أيدى الفرنج.

وقد كتم أسد الدين خبر حملته الثانية وهدفها، ولكن عمورى ملك بيت المقدس علم بنبئها، فأرسل إلى شاور يعلمه بتحرك أسد الدين نحو مصر، فطلب شاور منه إعادة النجدة، فرحب عمورى بالدعوة واستجاب لها وأسرع بجيشه نحو مصر فوصلها قبل أسد الدين، وخرج شاور للقائه عند بلبيس، واجتمع الجيشان - جيش عمورى وجيش شاور - يترقبان وصول أسد الدين.

وعلم أسد الدين بموقع أعدائه، فاحتال واتجه جنوبى الفسطاط، وعبر إلى البر الغربى، فعبر شاور بجيشه وجيش الفرنج وراءه، واتجه أسد الدين إلى الجيزة فعسكر بها خمسين يوماً، واستمال إليه بعض القبائل العربية المقيمة هناك، وبدأ يدرك خطورة موقفه، فإن الطريق بينه وبين الشام ومولاه نور الدين قد انقطعت بعد عبوره النيل إلى الضفة الغربية، ولهذا بدأ يلتمس السبل للخروج من هذا المأزق الحرج، فأرسل أولا إلى شاور يعرض عليه أن يتحالفا معًا،

منتهزين وجود عمورى بجيشه الكبير فى مصر، فينقضا عليه ويتخلصا منه، وبذلك يسهل على المسلمين القضاء نهائيًا على بقايًا قوى الصليبيين فى الشام، وقال أسد الدين مخاطبًا شاور فى رسالته إليه:

«وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسر، وأريد أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت، والغنيمة التى قد كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدًا»

ولكن شاور كان يخشى بأس أسد الدين أكثر من خشيته بأس الفرنج، فلم يستجب لنداء أسد الدين، بل لقد أمر بقتل رسوله، وأطلع عمورى على العرض الذى تقدم به أسد الدين.

عند ذلك أدرك أسد الدين أن لابد له - وقد انقطعت السبل بينه وبين مركز إمداداته فى الشام - أن يستعين برجال وإمدادات من مصر، فبدأ بمكاتبة أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور «لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييعه أموال بيت المسلمين فيهم» ووجدت هذه الدعوة أذنا صاغية، واستجاب السكندريون له، فقد كانوا فى جملتهم سنة مالكية، وكانوا يكرهون المذهب الشيعى - مذهب الدولة الرسمى - ويكرهون شاور لاستعانته بالصليبيين أعداء الوطن والدين، وأمّروا عليهم نجم الدين بن مصال وهو ابن أحد الوزراء السابقين، وكان قد لجأ إلى الإسكندرية مستخفيًا، فظهر فى هذه الفتنة.

ويروى أبو شامة فى كتابه «الروضتين» أخبار المعونة الحربية التى قدمها ابن مصال لأسد الدين نقلا عن الرسول الذى كان واسطة الاتصال بين الرجلين، ويدعى الشريف الإدريسى، قال أبو شامة:

«حدثنى الشريف الإدريسى - نزيل حلب - قال: كنت بالإسكندرية يومئذ، فكتب معى ابن مصال كتابًا إلى أسد الدين، وقال لى قل له أنى أخبرك أن السلاح واصل - وكان قد أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح - قال: فسبقتها بيومين، وحضرت بين يدى أسد الدين، وأعطيته الكتب، وشافهته برسالة ابن مصال فى معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف».

وتقدم أسد الدين بجيشه إلى الصعيد يجمع الأموال للاستعانة بها، فتبعته جيوش شاور وعمورى، والتحم الفريقان فى معركة فاصلة عند قرية البابين فى مديرية المنيا، وانتصر أسد الدين، وولت عساكر الأفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مرى يؤسر. وعاد أسد الدين فاتحا

نحو الشمال، وقصد مدينة الإسكندرية «فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وبادر القاضى الرشيد ابن الزبير متولى ديوان المدينة، فقدم إلى أسد الدين الأموال والأسلحة». ولم يقم أسد الدين فى الإسكندرية طويلاً، فقد خشى أن يأتى شاور بجيوشه لمحاصرته فيها، فأمر ابن أخيه صلاح الدين بالبقاء فى الإسكندرية ومعه فريق من الجند «ومن به مرض أو جراح أو ضعف»، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به خيرًا، ورحل عائدا إلى الصعيد.

وتحقق ما توقعه أسد الدين، فسار شاور بجيشه نحو الإسكندرية، وحاصرها ثلاثة أشهر، وضيق على أهلها، وقاتلهم أعنف قتال، ولكن الأهالى صدقوا القتال، وبذلوا كل ما يملكون من قوة ومال لنصرة صلاح الدين وتأييده، وقتل منهم جماعة كبيرة وعلم أسد الدين بما يعانيه ابن أخيه وأهالى الإسكندرية من ضيق، فأسرع بالعودة شمالاً يريد الاستيلاء على القاهرة، فاضطر شاور أن يفك الحصار عن المدينة ودارت مفاوضات الصلح بين الفريقين، وتم الاتفاق على أن تجلو جيوش أسد الدين وعمورى جميعًا عن مصر على أن يتكفل شاور بأن يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه فى هذه الحملة، وأن يدفع للفرنج ثلاثين ألف دينار، وطلب صلاح الدين من عمورى أن يقدم له سفنًا تحمل الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدة مراكب.

وكان صلاح الدين حفاظًا للجميل، فلم ينس ما قدمه أهل الإسكندرية له من معونة، وما قاموا به من تضحيات لنصرته، فاستحلف شاور أن لا يتعرض لأحد من أهل الإسكندرية بسوء، ومع ذلك فقد حنث شاور بيمينه - كعادته - فقبض على ابن مصال والرشيد ابن الزبير وجماعة ممن تعاونوا مع صلاح الدين، وعلم صلاح الدين بما حدث، فاجتمع بملك الفرنج، وشكا له شاور ونقضه للإيمان التى أخذها على نفسه، فأنكر عمورى ذلك، وألزم شاور يميناً أخرى أن لا يتعرض لأهل الإسكندرية ممن ساعدوا أسد الدين وصلاح الدين، يقول صاحب الروضتين:

> «ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا فى الرحيل إلى الشام، واتصل ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى إيمانه: ومنهم من لم يسكن ورحل».

لم يكن غريبًا إذن أن يكون أهل الإسكندرية أول من يرحب بالقضاء على الدولة الفاطمية بعد أن اتخذ صلاح الدين لهذا الإجراء عدته، والمعروف المتداول فى كل المراجع التاريخية أن الفسطاط كانت أول مدينة قطعت فيها الخطبة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين، وأقيمت للمستضئ بنور الله العباسى، وذلك فى الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ، ثم أقيمت بعد ذلك فى

القاهرة فى الجمعة التالية، ولكن صاحب الروضتين ينقل عن العماد الأصفهانى أن الخطبة أقيمت للخليفة العباسى فى الإسكندرية أولاً، يقول أبو شامة نقلاً عن العماد:

«قال: ووصل الخبر بأن الخطبة قامت فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى رمضان لمولانا الإمام المستضىء بنور الله وإقامة شعار بنى العباس بها».

٢ - الكشف عن داعية شيعى فى الإسكندرية بعد استقلال صلاح الدين بمصر:

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية واستقلال صلاح الدين بحكم مصر بقليل كشف فى الإسكندرية عن داعية خطير يسمى قديد القفاص يعمل على نشر المذهب الشيعى ويدعو لإعادة الدولة الفاطمية، فقبض عليه وقتل، روى خبر هذا الداعية القاضى الفاضل فى الخطاب الذى كتبه باسم صلاح الدين إلى نور الدين يروى له فيه الأحداث التى جرت فى مصر إلى أن تم القضاء على الدولة الفاطمية، قال:

«ومما يطرف المولى به أن ثغر الإسكندرية - على عموم مذهب السنة به - اطلع البحث أن فيه داعية خبيثًا أمره، محتقرًا شخصه، عظيما كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية، قد فشت فى الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتنته وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءًا من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطرًا وافيًا من أموالهن، ووجدت فى منزله بالإسكندرية عند القبض والهجوم عليه كتب مجردة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذى ما عنه اعتذار، ورقاع بخطاب بها، فيها ما تقشعر منه الجلود وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره، وحاق به مكره وصرعه كفره».

٣ - هزيمة أسطول صقلية على شواطئ الإسكندرية:

وفى الإسكندرية قابل صلاح الدين خطرًا جديدًا فى سنة ٥٦٩ هـ، أى بعد سنتين من القضاء على الدولة الفاطمية واستقلاله بمصر، وذلك أن أعوان الدولة البائدة من جند وأتباع راحوا يدبرون مؤامرة خطيرة للقضاء على صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية،وكانت المؤامرة تهدف إلى الاستعانة بكل أنصار الفاطميين وأعداء صلاح الدين فى الداخل والخارج، فانضم إليها حاشية القصر،ودعاة الدولة، وعامة الإسماعيلية، والجند من السودان، والأرمن، وأفراد من أسر الوزراء الفاطميين السابقين من آل رزيك وآل شاور، ووضعت الخطة على أن يستعين هؤلاء بسنان صاحب الحشيشية فى الشام، وبالفرنج فى الشام وفى جزيرة صقلية، واشترك فى

المؤامرة الشاعر المغامر عمارة اليمنى، وعهد إليه أن يقوم بإغراء تـوارن شـاه أخـى صـلاح الديـن الأكبر بالخروج بحملة إلى اليمن لفتحها وإقامــة ملك لـه فيـها، وكـانت الخطـة التـى وضعـها المتآمرون تتلخص فى الخطوات الآتية:

١ – أن يخرج تورانشاه بحملته إلى اليمـن فيصحـب معـه نحـو نصـف الجيـش ونضعف بذلك القوة التى تبقى مع صلاح الدين فى مصر، يقول ابن الأثير: «وقـال لهم عمارة: وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمـن خوفًا أن يسـد مسـده وتجتمـع الكلمـة عليه».

٢ – تأتى أساطيل الفرنج من الشام وصقليـة إلى مدينـة الإسكندرية فـإن خـرج صلاح الدين بنفسه للقائهم ثار المتآمرون فـى القـاهرة وملكـوا البلـد وأعـادوا الدولـة الفاطمية، وتركوا للفرنج مهمة القضـاء عليـه، وإن أقـام صـلاح الديـن فـى القـاهرة وأرسل جيشه لمقاتلة الفرنج ثار به المتآمرون وألقوا القبض عليه.

وكان صلاح الدين مجدود الطالع، فقد قدر له أن يكشف أخبار المؤامرة، نقلها إليه رجل من ثقاته هو الواعظ زين الدين بن نجا، وكان ملك بيت المقدس قد أرسـل إلى صـلاح الديـن رسـولاً بهدية ورسالة فى الظاهر، ولكنه كان مكلفًا بالاتصال سرًا بالمتآمرين: يقـول ابـن الأثـير: «فـأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى وداخله، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته».

عند ذلك أمر صلاح الدين بالقبض على كل المتآمرين، واستفتى الفقـهاء والعلمـاء فـى أمرهـم فأفتوا بقتلهم جزاء لهم على خيانتهم لوطنهم ودينهم، فقتلوا وصلبوا على أبواب القاهرة، وكان من بينهم الشاعر عمارة.

فشل إذن الشق الداخلى من المؤامـرة، وعلـم بفشـله فرنـج الشـام، فـأحجموا ولم يقدمـوا، أمـا صاحب صقلية غليالم الثانى (وليم الثانى)، فلم تكن قد وصلته أخبــار القبـض علـى المتـآمرين، فأرسل أسطوله الضخم لمهاجمة الإسكندرية، وكان صاحب القسطنطينية يسعى فى ذلك الوقـت لكسب ود صلاح الدين، فأرسل إليه ينبئه بأخبار هذا الأسطول، يؤيد هـذا قـول صـلاح الديـن نفسه فى خطاب أرسله إلى الخليفة ببغداد:

«.. إلى أن وصلنـا رسـله (أى رسـل صـاحب القسـطنطينية) فـى جمعـة واحـدة نوبتين بكتابين، كــل واحـد منـهما يظـهر فيـه خفـض الجنـاح، وإلقـاء السـلاح، والانتقـال مـن معـاداة إلى مـهاداة، ومـن مفاضحـة إلى مناصحـة، حتـى إنـه أنـذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردد ذكرها، وعساكره التى لم يخف أمرها».

وأشار صلاح الدين فى نفس الخطاب إلى الاستعدادات الضخمة التى كان يتخذها صاحب صقلية لإعداد الأسطول الذى سيهاجم به الإسكندرية، قال:

«ومن هؤلاء الكفار: هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب القسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسرا، وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة، فجهز أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثر عدته، وينتخب عدته، إلى أن وصل منه فى السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل..».

وصل الأسطول إلى شواطئ الإسكندرية ظهر يوم الأحد السادس عشر من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (٢٨ يوليو ١١٧٤م) وكان يتكون من:

- مائتى شينى لحمل الجنود من فرسان ورجال، وسعة كل شينى مائة وخمسون راجلا.
- ست وثلاثون طريدة لحمل الخيل، وكانت عدة الخيل ألفًا وخمسمائة رأس.
- ست مراكب كبار تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار والمنجنيقات والدبابات والحجارة وغيرها.
- أربعون حمالة برسم الأزواد والرجال «وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته، والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف رجل.

فكانت عدة جنود الحملة خمسين ألفًا، منهم ثلاثون ألفا من الرجالة والفرسان، وكان عدد الفرسان ألفا وخمسمائة منها خمسمائة من التركبلى، وكان القائد العام للحملة ابن عم غليالم صاحب صقلية..

وكان صلاح الدين عند ذلك معسكرًا عند مدينة فاقوس، فأرسل إليه والى الإسكندرية بواسطة الحمام الزاجل رسائل ينبئه فيها بوصول أسطول صاحب صقلية.

واستطاع الفرنج النزول ببر الإسكندرية فيما يلى المنار فى اليوم التالى لوصولهم، فخرج أهالى الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم لمقابلتهم، وجرت بين الفريقين مناوشات، واستطاع السكندريون أن يسبقوا إلى السفن الإسلامية الراسية فى الميناء، وأن يخربوها ويغرقوها حتى لا يمكنوا العدو من الاستيلاء عليها. «ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم» واتصل القتال إلى المساء، فضرب الصقليون خيامهم بالبر خارج أسوار المدينة وكانت عدتها ثلاثمائة خيمة.

وفى صبيحة اليوم الثانى عاود الفرنج القتال، وتقدموا بدباباتهم ومنجنيقاتهم حتى حاذوا بها الأسوار، وكانت المجانيق تضرب بحجارة استصحبوها معهم من صقلية،وكان الأهالى قد احتموا داخل الأسوار يدافعون عن المدينة من ورائها، وفى يوم الأربعاء - وهو اليوم الثالث من أيام القتال خرج أهالى الإسكندرية فجأة وفى جموع ضخمة من أسوار المدينة، وهجموا على العدو هجمة رجل واحد، ووصلوا إلى الدبابات فأحرقوها، واستمر القتال إلى آخر النهار، وكتب النصر للأهالى، وعادوا فى الليل إلى مدينتهم وهم - كما يقول ابن الأثير - «فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم، وفشل الفرنج وفتور حربهم، وكثرة القتل والجراح فى رجالتهم».

وكانت الأخبار قد وصلت إلى صلاح الدين فأرسل فى الحال رسولا من قبله إلى الإسكندرية يبشرهم بقرب وصوله، وأرسل طائفة أخرى من عسكره إلى ثغر دمياط للدفاع عنها، ووصل رسوله إلى الإسكندرية عصر يوم الأربعاء والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى المدينة بقرب وصول صلاح الدين وجيشه، فأشعل هذا النداء حماس الأهالى، فأسرعوا بترك المدينة وخرجوا لاستئناف القتال، ويتضح من أقوال المؤرخين أن صلاح الدين كان قد أصبح فى نظر السكندريين بطلا أسطوريا وزعيما محبوبًا،ولا عجب فى هذا فقد سبق أن التفوا حوله منذ سبع سنوات، وأظهر من آيات البطولة ما أثار إعجابهم عندما صمد لحصار العدو لمدة شهور ثلاثة، وقد عقدت بينه وبينهم منذ ذلك الحين أواصر المحبة والولاء، لهذا لم يكادوا يسمعون بقرب وصول قائدهم وزعيمهم حتى تناسوا تعب القتال طول النهار واندفعوا يستأنفون الجهاد بروح الفدائى المستميت، يقول ابن الأثير: «فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله».

أما الفرنج فإنهم لم يكادوا يسمعون بقرب وصول صلاح الدين حتى تملكهم الرعب، واستولى عليهم الفزع، وفترت همتهم، وضعف حماسهم للقتال، فهاجمهم السكندريون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم، واستولوا على ما فيها، وقضوا على من بها من الجند، ولم ينج منهم إلا من استطاع أن ينزع ملابسه ويلقى بنفسه فى الماء،وتتبعهم أهالى الإسكندرية فى البحر فاستولوا على عدد من سفنهم فخسفوها وأتلفوها، وولت بقية السفن هاربة، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم فى رأس تل «فانقض عليهم الأهالى وأخذوا خيولهم وقتلوا منهم البعض وأسروا البعض الآخر».

وانتهت المعركة بانتصار أهل الإسكندرية انتصارًا رائعا حاسمًا «وأخذوا من المتاع والأسلحة ما لا يملك مثله»، وأقلع الأسطول عن الثغر مهزوما مدحورا يوم الخميس أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ.

٤ - زيارة صلاح الدين الأولى للإسكندرية: عنايته بالأسطول وترميم أسوار المدينة:

مما سبق نرى أن الخطر كان يهدد صلاح الدين فى مدينة الإسكندرية مرة وهو يسعى للملك مصر، ومرة ثانية وهو يسعى للتمكين لهذا الملك، فلا عجب إذن أن رأيناه يعنى بهذه المدينة عناية خاصة، فيصدر أوامره بالعناية بأسوارها وترميم حصونها وأبراجها وقلاعها، ولما فرغ من القضاء على الصعوبات التى اعترضته جميعًا سافر فى شعبان سنة ٥٧٢ هـ إلى الإسكندرية ليشرف بنفسه على هذه الإصلاحات والتحسينات، قال ابن واصل فى كتاب «مفرج الكروب»: «ثم سار (صلاح الدين) فى الثالث والعشرين من شعبان إلى الإسكندرية، ليشاهدها ويرتب قواعدها، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها».

ورأى صلاح الدين بثاقب فكره أن شواطئ مصر لا يمكن أن يحميها إلا أسطول قوى، وانتهز فرصة زيارته للإسكندرية وزار أسطولها فوجده خرباً، قد نالت منه السنون والأحداث والاضطرابات التى سادت مصر فى العصر الفاطمى المتأخر، فأمر بتعميره وإنشاء سفن جديدة لتقويته وأفرد له ديوانا خاصًا أسماه «ديوان الأسطول»، ذكر هذا المؤرخ ابن أبى طى قال:

> «ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين، فرأى الأسطول وقد أغلقت سفنه وتغيرت آلاته بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعًا مخصوصًا وديوانًا مفردًا، وكتب إلى سائر البلاد يقول: القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر، ويغزى إلى الجزائر».

وبلغ من عناية صلاح الدين بالأسطول أن عهد بديوانه إلى أخيه الملك العادل فى سنة ٥٨٧ هـ، وخصص للصرف عليه أبوابًا كثيرة من إيرادات الدولة.

٥ - الأعمدة الأثرية تلقى فى البحر لحماية الميناء الشرقى:

ويبدو أن صلاح الدين لم يعن بإنشاء دار الصناعة وتعمير الأسطول فقط، وإنما اتخذ وسائل أخرى لتحصين الثغر حماية له من غارات الأعداء، فقد ذكر المقريزى فى خططه عند كلامه عن عمود السوارى أنه «كان حوله أربعمائة عمود، كسرها قراجا وإلى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا».

وقد زار الرحالة عبد اللطيف البغدادى مدينة الإسكندرية فى عهد الملك العادل أخى صلاح الدين، وشاهد هذه العمد المكسرة عند شاطئ البحر، وانتقد ما فعله قراجا من كسره هذه الأعمدة، قال:

«ثم إنى رأيت بشاطئ البحر مما يلى سور المدينة أكثر من أربعمائة عمود مكسرة أنصافًا وأثلاثًا،حجرها من جنس حجر عمود السوارى على الثلث منه أو الربع، وزعم أهل الإسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السوارى وأن بعض ولاة الإسكندرية واسمه قراجا كان واليًا عن يوسف بن أيوب، فرأى هدم هذه السوارى وتكسيرها وألقاها بشاطئ البحر، زعم أن ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة أو أن يمنع مراكب العدو أن تستند إليه، وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة».

٦ - صلاح الدين وأولاده وكبار رجال دولته يتلقون العلم على الحافظ السلفى:

ولم يقصد صلاح الدين بهذه الزيارة أن يشرف على تقوية الأسوار والحصون وتعمير الأسطول فحسب، وإنما قصد أيضًا أن يزور عالم الإسكندرية ومحدثها الأكبر وقتذاك أبا الطاهر أحمد بن محمد السلفى، فقد كان هذا العالم الفذ استقر فى مدينة الإسكندرية منذ سنة ٥١١ هـ يدرس ويحدث، وأصبحت له مدرسة وتلاميذ، وطبقت شهرته الآفاق، فلما اعتزم صلاح الدين زيارة الإسكندرية فى تلك السنة كان من أهم أغراضه التردد على هذا العالم والأخذ عنه، ولهذا صحب ولديه الأفضل عليا والعزيز عثمان، ليشاركا فى الإفادة من علم السلفى، فلما استقر بالإسكندرية كان يتردد مع ولديه وقواد جيشه ورجال دولته على هذا العالم ثلاثة أيام فى الأسبوع.

٧ - زيارة صلاح الدين الثانية للإسكندرية وأخذه العلم عن الفقيه الطاهر ابن عوف:

وظل صلاح الدين يعنى بثغر الإسكندرية حربيًا وعلميًا، وعاد إلى زيارتهما فى سنة ٥٧٧ هـ، وخيم عند السوارى، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام، ثم رأى أن يغتنم حياة فقيه آخر هو كبير علماء الإسكندرية ذلك الحين أبو الطاهر ابن عوف، فحضر عنده مرارًا مستصحبًا كالعادة أولاده وكبار رجال دولته، وسمعوا عليه جميعًا موطأ مالك بروايته عن أستاذه الطرطوشى.

روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفهانى - كاتب إنشاء صلاح الدين - فقد كان مصاحبًا له فيهما، قال:

«وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السوارى، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام، وقال السلطان»:

«نغتنم حياة الشيخ الإمام أبى طاهر بن عوف، فحضرنا عنده، وسمعنا عليه موطأ مالك - رضى الله عنه - بروايته عن الطرطوشى - فى العشر الأخيرة من شوال، وتم له ولأولاده ولنا به السماع».

واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصل خيرًا كثيرًا بتتلمذه على ابن عوف وسماعه منه، فقد أرسل القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع، ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين هذه مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف، ورحلة هارون الرشيد مع ولديه الأمين والمأمون لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك (ونص الرسالة فى كتاب الروضتين لأبى شامه).

٨ - صلاح الدين والطاهر ابن عوف:

وأسرة بنى عوف كانت إحدى الأسر الكبيرة فى مدينة الإسكندرية خلال القرن السادس الهجرى، وتتمتع بثروة ضخمة ومركز اجتماعى مرموق، وبرز من أفرادها عدد كبير من الرجال شاركوا فى الأحداث السياسية والحياة العلمية فى المدينة، وقد مر بنا أن ابن أخت الفقيه ابن عوف هو الذى حمل خزائن الأسلحة من ابن مصال إلى أسد الدين شيركوه وقد برز من أفراد هذه الأسرة عدد كبير من العلماء الأفذاذ كان على رأسهم الفقيه أبو الطاهر، ويبدو أن علاقات الود والصداقة قد عقدت بين رجال هذه الأسرة - وفى مقدمتهم الفقيه أبى الطاهر - وبين صلاح الدين منذ أيام المحنة التى قاسى شدائدها عندما حاصره الفرنجة فى مدينة الإسكندرية.

وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته، فقد أسرع بتلبية رغبته - أثناء هذه الزيارة - عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر، وهى ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر وعلمائه، قال ابن فرحون فى كتابه «الديباج المذهب»:

«وقيل إنه (أى ابن عوف) كان السبب فى تجديد الصادر بثغر الإسكندرية، وهو شيء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية، زائدًا على

العشر، رتبه لفقهاء الثغر، دنانير تصرف فى كل شهر، وجعل لـه نـاظرًا وشـهودًا أوقفه عليهم وعلى ذريتهم».

كانت لابن عوف إذن مكانة كبيرة عند صلاح الدين، وكان يجله ويحترمه، ويقدره ويوقـره، وكان إذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل إليه يسـأله الـرأى والفتـوى، يؤكـد هذا قول ابن فرحون:

«وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله»

وقد روى الصفدى فى كتابه «نكت الهميان» قصة مراسلة من هـذه المراسـلات عنـد ترجمتـه للقاضى شرف الدين عبد الله بن أبى عصرون، فقد أضـر هـذا القـاضى آخـر عمـره أثنـاء توليـه القضاء، وثار الجدل حول جواز بقائه فى منصبه بعد إصابته بالعمى، وكـان ابـن أبـى عصـرون نفسه حريصًا على أن يظل قاضيًا، فألف رسالة أيد فيها جواز أن يكـون القـاضى أعمـى، وهـو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ويبدو أن صلاح الدين كان حريصًا علـى إرضـاء ابن أبى عصرون وعدم المساس بشعوره فى شيخوخته فأرسل يستفتى ابن عوف فى الأمر، قـال الصفدى:

«وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضى الفاضل يقول فيـه: إن القـاضى قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبى الطـاهر بـن عـوف السـكندرى، وتسأله عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى».

٩ - منشآت صلاح الدين في الإسكندرية: المدرسة الجامعة والبيمارستان ودار المغاربة:

وفى هذه الزيارة الثانية أنشأ صلاح الدين فى الإسكندرية مدرسـة جامعـة، - ولسـنا نعـرف للأسف شيئًا عن موقعها أو تاريخها - يدرس بها للطلبة الغرباء مختلف العلوم والفنون، وألحق بها مساكن للطلبة وحمامات يستحمون بها ومارستانا لعلاج من يمرض منهم.

أشار إلى هذه المدرسة وإلى المنشآت والإصلاحات الكثـيرة التـى قـام بـها صـلاح الديـن أثنـاء زيارته هذه للإسكندرية المقريزى فى كتابه الخطط - قال:

«ثم خرج إلى الإسكندرية، وسمع بها موطأ الأمام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف، وأنشأ بها مارستانا ودارًا للمغاربة ومدرسة، وجدد الخليج ونقل فوهته».

وقد وصف هذه المدرسة الجامعة الرحالة المعروف ابـن جبـير عنـد زيارتـه للإسـكندرية بعـد قليل.. قال:

«ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه، ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به فى جميع أحواله.. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب أيضًا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم».

١٠ -صلاح الدين يبنى مسجدًا جامعًا جديدًا فى الإسكندرية:

وقد أمر صلاح الدين - اتباعًا لسياسته فى القضاء على المذهب الشيعى وعلى آثار الدولة الشيعية المنتهية - ببناء مسجد جديد فى الإسكندرية، ونقل الخطبة إليه بعد أن كانت تقام فى العصر الفاطمى فى أكبر مساجد المدينة فى ذلك العصر وهو مسجد العطارين (أو مسجد الجيوشى)، وقد حاولنا التعرف على مكان هذا المسجد الهام ولكننا لم نستطع، لأن المراجع التى ذكرته لم تشر إلى موقعه للأسف.

١١ -كثرة المساجد فى الإسكندرية فى أقوال الرحالة:

ولقد بهرت الإسكندرية الرحالة ابن جبير لكثرة ما بها من مساجد ولوفرة ما يصرف عليها وعلى القائمين بأمرها، قال:

«وهو (أى ثغر الإسكندرية) أكثر بلاد الله مساجد، حتى أن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد، والمقل دون ذلك، لا ينضبط، فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك، وبالجملة فهى كثيرة جدًا، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع، وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه، وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان».

والمبالغة واضحة فى الأرقام التى يوردها ابن جبير، ويبدو أن كثرة المساجد فى المدينة قد أثارت الإعجاب فى نفسه ودفعته إلى هذه المبالغة، وإلا فإن كاتبًا معاصرًا هو محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذى زار الإسكندرية فى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) وأقام بها

نحو الأربعين سنة يقول عند وصفه المدينة: «وبها ٨٠٠ مسجد، منها ١٩٠ للخطبة، وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم بها».

ويبدو أن كثرة المساجد بالمدينة كانت كثرة غير عادية بحيث تبهر كل زائر غريب، وتسترعي انتباهه، فهذا رحالة آخر زار المدينة في عهد الملك العادل أخى صلاح الدين - وهو أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى قال فى كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات: «وبها من المساجد والمعابد مالا رأيته بغيرها، وذكر لى ابن منقذ أن فيها اثنى عشر ألف مسجد، فسألت القاضى الكاتب عن ذلك، قال:

«إن الملك العزيز عثمان كشف ذلك، فوجدوا بها عشرين ألف مسجد، وأنا فما عددتها، والله أعلم بصحة ذلك».

وإشارة ابن جبير والهروى هذه إلى المساجد وكثرتها تعطينا صورة واضحة لما كانت عليه المدينة من عمران فى العصر الفاطمى السابق، لأن هذه الآلاف لم تبن كلها فى أوائل عهد صلاح الدين، وإنما بنيت فى العصور السابقة، وخاصة فى العصر الفاطمى.

كما أن هذه الإشارة إلى المبانى الفوقية - وهى الدور والمنازل - والمبانى التحتية المعتنى بها - وهى الآبار والصهاريج - يؤكد صحتها ما يتردد من أقوال مشابهة فى كتب الرحالة والجغرافيين العرب الآخرين عند وصفهم لمدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى.

١٢ - رعاية صلاح الدين للوافدين من المغاربة:

والصلة بين الإسكندرية والمغرب صلة وثيقة وقديمة، فهى أول مدينة مصرية ينزل بها الحجاج المغاربة - وخاصة الوافدون منهم عن طريق البر - فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة لأداء الفريضة، ولهذا يسميها الجغرافيون العرب: «باب المغرب»، وقد ذكر ابن جبير عند كلامه عن مدينة الاسكندرية أن السلطان صلاح الدين كان قد أمر بأن يصرف لكل واحد من أبناء السبيل الوافدين من المغرب خبزتين فى اليوم، وأوقف أوقافًا خاصة للصرف من إيرادها على هذا المقصد، واعتبر ابن جبير هذا العمل مأثرة من مآثر صلاح الدين.. قال:

«ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغًا ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانًا أمينًا من قبله فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، هكذا دائمًا، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشى ما عينه من زكاة العين لذلك.. إلخ».

الفصل الثانى
تجارة الإسكندرية الداخلية والخارجية
فى عصر صلاح الدين

وكان لهذه العناية الملحوظة التى أسبغها صلاح الدين على ثغر الإسكندرية أثرها البالغ فى تقدم المدينة ورفاهية أهلها وازدياد عمرانها، ونشاط تجارتها الداخلية والخارجية، فقد زارها الرحالة الأندلسى ابن جبير فى أواخر سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ووصفها بقوله:

«إنا ما شاهدنا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى، ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضًا ومن العجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وامتن، لأن الماء من النيل يخترق ديارها وأزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، ويمد بعضها بعضًا.. ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجل بين يدى من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضًا يزاحم الجو سموا وارتفاعًا، يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق، والمشاهدة له تتسع، ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفًا وخمسين باعًا، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة، وأما داخله فمرأى هائل: اتساع معارج ومداخل، وكثرة مساكن، حتى أن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل، وبالجملة لا يحصلها القول، والله لا يخليه من دعوة الإسلام ويبقيه، وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور، وشاهدنا من شأن مبناه عجبًا لا يستوفيه وصف واصف».

كانت منارة الإسكندرية إذن هى أهم شيء لفت نظر ابن جبير ونال عنايته حتى أنه جاس خلالها، وقاس أبعادها، ووصف مبناها، وارتقى مدارجها، وتبرك بالصلاة فى مسجدها، وما هذا إلا أنها هداية للمسافرين والتجار، ولولاها ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية فإن، أنوارها تظهر على أزيد من سبعين ميلاً.

وقد زار الإسكندرية الرحالة اليهودى «بنيامين التطيلى» فى السنوات الأولى من حكم صلاح الدين - أى قبل زيارة ابن جبير لها بنحو ١٧ سنة - ووصف المدينة وشوارعها ومبانيها وصفا دقيقًا لا يختلف كثيرًا عن وصف ابن جبير لها، وإن كان هذا الوصف يؤكد أن المدينة كانت لا تزال تحافظ على تخطيطها العام الذى عرفت به من أقدم العصور، فقد قال:

«ومدينة الإسكندرية مشيدة على طبقات معقودة تحتها الكهوف والمغاور، وشوارعها مستقيمة لا يحد البصر آخرها لطولها، فالشارع الممتد من باب رشيد إلى باب البحر ينوف على الميل طولا، وفى مرساها رصيف فى البحر إلى مسافة ميل أيضًا».

ثم عنى عناية خاصة بوصف منار الإسكندرية، وأتى على طرف من تاريخه ختمه بقوله:

«ولا يزال منار الإسكندرية يهدى السفاين الغادية والرائحة، ويشاهد عن بعد مائة ميل نهارًا، وفى الليل ينبعث منه نور يهتدى به الملاحون».

وأهم ما فى وصف بنيامين الثبت الدقيق المفصل الذى أحصى فيه أسماء الممالك والأقطار الأجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية فى ذلك الوقت، ومن هذا الثبت نعرف أن أنواع التجارة وألوانها المختلفة كانت تتدفق إلى الإسكندرية من كل بلدان أوروبا المسيحية، ومن كل بلدان الشرق الإسلامية وغير الإسلامية، فمن بلدان أوروبا:

البندقية، ولمبارديا، وطسقانيا، وصقلية، ورومانيا، وهنغاريا، وبلغاريا، وكرواتيا، وروسيا، وألمانيا، وسكسونيا، والدانمراك، ونرويج، وهولندا، وسكوتلندا، وإنجلترا، وويلز، وفلندرز، ونورمانديا، وفرنسا وأنجو، وبرجنديا، وبروفنس، وجنوة، وبيزاء وأرجون... الخ.

ومن بلدان الشرق: بلاد المغرب، وجزيرة العرب، والهند، والحبشة واليمن، والعراق والشام، وتركيا.

ويبدو من دقة هذا الثبت ووفرة أسماء البلدان التى أوردها أن الرحالة بنيامين تعرف على بعض تجار الإسكندرية - وخاصة اليهود منهم - وربابنة السفن بها، ومنهم استمد هذ المعلومات القيمة.

والجديد فى وصفة إشارته إلى نوع جديد من المنشآت عرفته الإسكندرية والثغور المصري الأخرى فى العصور الإسلامية، وهو الفنادق (من الكلمة «اليونانية Pandokeion » التى كـ يأوى إليها تجار الممالك والدول الأوربية المختلفة، قال بنيامين:

«وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى، ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم فى ضجة وجلبة يبيعون ويشترون».

وهو وإن لم يشر فى وصفه إلى مكان هذه الفنادق أو يصفها إلا أننا نستطيع أن نرجح أنها كانت تقوم داخل المدينة بالقرب من باب البحر الذى كان يطل على الميناء الشرقى مباشرة - مرسى سفنهم -، أى حيث يقوم حي المنشية وشارع الميدان الحاليان.

والفنادق كانت مبان ضخمة تتكون من عدة طوابق، وكان يخصص لتجار كل دولة فندق أو أكثر، وذكر «هايد» أن تجار البنادقة كان لهم فى الإسكندرية فندقان، وأشارت المراجع كذلك إلى وجود فندق لتجار الجاليات الأوربية الأخرى كالكتلان، والبيزانيين، والفلورنتيين (أهالى فلورنسا) والفرنسيين، وكان التجار يسكنون الطوابق العليا، أما الطابق الأسفل فكان يضم الحوانيت التى تعرض فيها البضائع، وتفتح هذه الحوانيت من الداخل على فناء تفرغ فيه البضائع وتخزن، وكان يلحق بالفندق فى العادة حمامات خاصة وفرن وكنيسة توفيرًا لراحة التجار الأجانب وتمكينًا لهم من أداء شعائرهم الدينية.

وتخصيص بنيامين توابل الهند وعطورها بالذكر يدل دلالة واضحة على أن هذه الأصناف كانت أهم تجارات الإسكندرية فى ذلك العصر، يؤيد هذا نصوص المؤرخين المختلفين والمعاهدات التجارية التى كانت تعقد بين سلاطين الأيوبيين والمماليك وبين الجمهوريات الايطالية والدول الأوروبية.

ويؤيد هذا أيضًا أن أحد أبواب الإسكندرية فى العصر العربى - وهو باب سدرة - كان يسمى أيضًا باب البهار، لأن بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة عبر البحر الأحمر كان يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم فى خليج الاسكندرية، حيث تفرغه خارج الإسكندرية عند هذا الباب، وفى الأوقات التى كان يتعطل فيها الخليج ويتعذر على السفن المسير فيه كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال تأتى إلى الإسكندرية عن طريق البرى وتدخلها من (باب سدرة) أو باب البهار، لا من باب رشيد.

وكان بنيامين يعنى بإحصاء عدد اليهود المقيمين فى كل مدينة يزورها فقد ذكر أنه كان بالإسكندرية منهم وقت زيارته لها ٣٠٠٠ يهودى، وليس هذا بالغريب فى بلد كان له هذا النشاط والمدن التجارية فى كل عصر وأوان.

هذا الوصف الذى وصف به بنيامين مدينة الإسكندرية يلقى بعض الضوء على تاريخ التجارة الخارجية للمدينة فى عهد صلاح الدين، وفى كتاب «قوانين الدواوين» لابن مماتى نص آخر

يلقى بعض الضوء على تاريخ الحركة التجارية الداخلية بين الإسكندرية ومدن القطر الأخرى، وخاصة العاصمة القاهرة، فقد قال ابن مماتى فى تقويمه الاقتصادى:

«وفى مسرى جريان النيل بخليج الإسكندرية، وتسفير المراكب إليه بالشب، والغلال، والكتان، والبهار، والسكر، وغير ذلك من الأصناف، وفيه يحمل من ثغر الإسكندرية المحروس إلى الباب العزيز من الأخشاب والحديد وغير ذلك من الأصناف برسم عمارة المراكب».

فمؤرخنا ابن مماتى قد بين هنا أن حركة التجارة بين الإسكندرية وداخل القطر كانت لا تنشط إلا وقت الفيضان عندما يرتفع الماء فى خليج الإسكندرية ويسهل على المراكب السير فيه، وهو قد حدد أيضًا الأصناف التى ترسل إلى الإسكندرية لتصدر منها إلى الخارج، وبعضها من إنتاج مصر كالشب والكتان والغلال والسكر، وبعضها مما يرد إلى مصر من الشرق وهو البهار، كما حدد الأصناف التى ترسل من الإسكندرية إلى العاصمة - وهى مما يرد من أوروبا — وأهمها الخشب والحديد لعمارة سفن الأسطولين الحربى والتجارى فى دار صناعة السفن بالفسطاط أو بالمقس ميناء القاهرة.

الفصل الثالث
الإسكندرية فى عهود خلفاء صلاح الدين من ملوك الدولة الأيوبية

(أ) فى عهد العزيز عثمان:

هذه هى صورة تخطيطية لما كانت عليه الإسكندرية حربيًا وعلميًا وعمرانيًا وتجاريًا فى عهد صلاح الدين، وهى لا تكاد تختلف كثيرًا عن صورتها فى عهد خلفائه من ملوك بنى أيوب، فقد كان معظمهم يوالونها بعنايتهم، والمراجع تذكر أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قد زار الإسكندرية مرتين للإشراف على شئونها: فى ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ (أكتوبر ١١٩٦م)، وفى ذى الحجة ٥٩٥ هـ (سبتمبر ١٢٠٠م) وذلك على الرغم من قصر مدة حكمة، ولا عجب فى هذا، فإن العزيز كان يحمل فى نفسه ولا شك أجمل الذكريات عن مدينة الإسكندرية منذ زارها فى صباه الباكر مع والده صلاح الدين، ومنذ تردد معه على مجالس العلم الحافلة للاستماع على الحافظ السلفى والفقيه أبى الطاهر بن عوف، حتى لقد عده المؤرخون من تلاميذهما، واعتبروا هذه التلمذة إحدى فضائله، قال ابن تغرى بردى فى ترجمته له:

«وكان (العزيز) ملكًا مباركًا، كثير الخير، واسع الكرم، محسنًا إلى الناس، معتقدًا فى أرباب الخير والصلاح، سمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى».

وفى سنة ٥٩٢ هـ حدثت فى مصر مجاعة خطيرة شملت المدن الكبرى بما فيها الإسكندرية، وفى هذه السنة - كما يقول المقريزى.

«كثرت الأموات أيضًا بالإسكندرية وتزايد وجود الطرحى بها فى الطرقات».

وأغلب الظن أن زيارة الملك العزيز الأولى للإسكندرية فى هذه السنة كانت للإشراف على المدينة ورعاية أهليها ومعالجة آثار المجاعة.

ويبدو أن الإسكندرية كانت تعتبر فى تلك الأوقات منطقة طيبة لممارسة رياضة الصيد، ولهذا لم يقصر الملك العزيز زيارته الثانية للإسكندرية فى سنة ٥٩٥ هـ على كشف أحوال المدينة ورعاية شئونها فحسب، وإنما قضى وقتًا منها فى الصيد، قال المقريزى فى كتابه السلوك:

«والعزيز صاحب مصر قد سار إلى الإسكندرية فى آخر ذى الحجة فتصيد إلى سابع المحرم».

(ب) في عهد الملك العادل أبي بكر:

وكذلك زار الملك العادل أبو بكر (أخو صلاح الدين) بعد توليته عرش مصر مدينة الإسكندرية ثلاث مرات لكشف أحوالها وترتيب أمورها، وكان ذلك في السنوات ٦٠٨ هـ (١٢١١م) و٦١٢ هـ (١٢١٥م) و ٦١٣ هـ (١٢١٦م).

أشار المقريزى فى كتابه «السلوك» إلى الزيارة الأولى، فقال إن العادل زار الإسكندرية فى سنة ٦٠٨ (١٢١١) «لكشف أحوالها»، وروى هذا المؤرخ كذلك فى كتابه الخطط أن العادل زار الإسكندرية فى سنة ٦١٢ (١٢١٥)، ففى تلك السنة «اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج وقدمت بطسة (سفينة حربية) إلى الميناء فيها من ملوك الفرنج ملكان، فهموا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد ويملكوها، فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب إليها، وقبض على التجار المذكورين وعلى من بالبطسة، واستصفى أموالهم وسجنهم، وسجن الملكين، وجرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم وعاد إلى القاهرة».

ولهذا النص - على قصره - أهمية خاصة لأنه يتضمن إحصاء نادرًا عن عدد التجار الفرنج بمدينة الإسكندرية فى العصر الأيوبى.

ويبدو أن هذه الفتنة قد دفعت العادل إلى زيادة العناية بحصون المدينة وأسوارها فقد زار المدينة فى السنة التالية ليشرف على شئونها وترتيب أمورها، روى خبر هذه الزيارة الثالثة المقريزى فى السلوك.. قال:

«وفيها (٦١٣هـ) سار الملك العادل من القاهرة إلى الإسكندرية فرتب أمورها وعاد».

ولكن هذه الإجراءات الحاسمة التى اتخذها العادل حيال تجار الفرنج كان لها أثرها فى تجارة الثغر، فقد ذكر أبو شامة فى كتابه «الذيل على الروضتين» أن تجار الفرنج امتنعوا فى سنة ٦١٣ «من الوصول إلى الاسكندرية، وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها، فحصل لملك عكا جملة وافرة».

(جـ) في عهد الملك الكامل محمد:

وفى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠م) أو ٦٠٩ هـ (١٢١٢م) زار الملك الكامل محمد - أثناء نيابته عن أبيه العادل فى حكم مصر - مدينة الاسكندرية، وفيها تقابل مع أخيه الملك المعظم عيسى عندما خرج من دمشق قاصدًا زيارته، أشار إلى هذه الزيارة سبط ابن الجوزى قال:

«وكان (المعظم) قد توجه إلى أخيه الكامل فى سنة سبع أو تسع وستمائة، والكامل فى الاسكندرية، فركب (المعظم) فرسًا واحدًا، ووصل من دمشق إلى الإسكندرية فى ثمانية أيام، فخرج الكامل فالتقاه، وترجلا واعتنقا».

ذلك أشار المقريزى إلى زيارة ثانية زارها الملك الكامل لمدينة الإسكندرية فى سنة ٦٢٨هـ - د وفاة والـده العـادل واستقلاله هـو بحكـم مصـر - قـال: «وفيـها سـار الملك الكـامل إلى ندرية»، ولكنه لم يذكر شيئًا عن أسباب هذه الزيارة أو عما فعله الكامل خلالها.

فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب:

يست هناك إشارة فى المرجع إلى أى زيارة قام بها الملك الصالح نجـم الديـن أيـوب لمدينـة ندرية، ولم يكن هـذا خروجًـا علـى المـألوف مـن سياسـة ملـوك بنـى أيـوب نحـو مدينـة ندرية، وإنما كان هذا لانشغال الصالح طول مدة حكمه بمقاتلة الفرنج فى الشام أولا وعنـد م بدمياط ثانيًا، ومع ذلك فقد كانت عنايته بالإسكندرية كبيرة، ففى السنة التالية لتوليـه مصر، وهى سنة ٦٣٨هـ أمر بنقل الأمير بدر الدين بن باخل من ولاية مصـر وولاه مدينـة ندرية، وقد عرف ابن باخل بالكفاية والتدبير والحزم.

) أمراء البيت الأيوبى والإسكندرية:

ان لأمراء البيت الأيوبى - من غير الملوك - صلات قوية بمدينة الاسكندرية، فقد وليـها ، توار نشاه، أخو صلاح الدين الأكبر مدة يسيرة قبل وفاته، وبها توفـى ودفـن، قـال ابـن لى:

ان السلطان (صلاح الدين) قد أنفذ أخاه شمس الدولة (توران شاه) إلى الإسـكندرية وجعـل ولايتـها، فلمـا حصـل بـها لم توافقـه، وكـان يعتـاده القولنـج فـهلك بـه ودفـن بقصـر ندرية».

ال صاحب النجوم الزاهرة إن تورانشاه عندما أتى إلى الإسكندرية «أقـام بـها معتكفًـا علـى »، وأن أخته شقيقته ست الشام أمرت بنقل جثته بعد موته إلى دمشـق حيـث دفنـت فـى ا التى أنشأتها هناك.

كـر المقريـزى فـى السـلوك أن الملـك المظفـر تقـى الديـن عمـر بـن شاهنشـاه - ابـن أخـى ج الدين - خرج فى سنة ٥٨١هـ - وكـان إذ ذاك ينـوب عـن عمـه فـى حكـم مصـر - إلى كندرية لكشف أحوالها، ويبدو أن السبب الذى دفعه إلى هذه الزيارة هـو إخمـاد فتنـة قـا هالى المدينة، فقد قال المقريزى فى حوادث نفس السنة:

«وفى يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول كانت بالإسكندرية فتنة بين العوام، ونهبوا فيها المراكب الرومية، فقبض على عدة منهم ومثل بهم».

الفصل الرابع
الرحالة والمؤرخون
الذين زاروا الإسكندرية فى العصر الأيوبى

١، ٢ - بنيامين التطيلى وابن جبير الأندلسى:

وقد زار الإسكندرية فى العصر الأيوبى عدد كبير من الرحالة والمؤرخين أشرنا من قبل إلى اثنين منهم هما: بنيامين التطيلى اليهودى، وابن جبير الأندلسى، وقد استشهدنا بأوصافهما للتعرف على أحوال المدينة العمرانية والاقتصادية، وقد أضاف ابن جبير إلى أوصافه السابقة وصفًا آخر طريفًا لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى المدينة، فقد شاهد بها يوم وصوله إليها «مجتمعًا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا إلى البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق»، وكان هؤلاء بعض الأسرى الذين أسرتهم الأساطيل المصرية التى أرسلت من الإسكندرية والقاهرة لمطاردة سفن أرناط صاحب الكرك التى سبق أن خرجت من أيلة تريد الاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، يقول ابن جبير:

«فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم.. وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلد ليقتلوا بها..».

٣ - المؤرخ أبو شامة:

وفى سنة ٦٢٨هـ - فى عهد الملك الكامل - زار الإسكندرية المؤرخ الدمشقى أبو شامة صاحب الروضتين والذيل عليه، وبقى فيها إلى سنة ٦٢٩هـ، ولم يقدم لنا وصفًا للمدينة كما رآها، وإنما ذكر أنه زار قبر الحافظ السلفى بها.. قال:

«وقد زرت قبره بها داخل الباب الأخضر» وذكر فى موضع آخر أنه قابل الشيخ محمد القبارى أحد متصوفة المدينة وزهادها.. قال:

«كنت اجتمعت به فى آخر سنة ٦٢٨هـ مع جماعة، صادفناه وهو يسقى فى جرار ماء من الخليج على حمار يسقى به غيطه، وكان الماء فى الخليج حينئذ

قليلا فأجلسنا إلى أن تم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه، وكذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم».

٤ - الرحالة أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى:

وفى أواخر القرن السادس الهجرى زار الإسكندرية الرحالة أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى (المتوفى سنة ٦١١هـ) صاحب كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات»، ووصف المدينة فى كتابه هذا، وعنى أكثر ما عنى بوصف الآثار القديمة والقبور والمساجد التى يقصدها الناس للزيارة.

ومن الآثار القديمة التى شاهدها عمود السوارى ووصفه بأنه «مصقول صقال الفصوص، والعمد حوله، ويقال هذا الرواق الذى بنته اليونان.. وتحته قاعدة مربعة من الحجر المانع قطعة واحدة».

ووصف المنارة بقوله:

«وإنما ذكروا منارة الإسكندرية من العجائب لما كان بها المرآة التى ذكروا أن المراكب إذا أقلعت من مسيرة أيام تظهر صورها فيها فيستعدوا للقائها، وقيل إنها كانت تحرق المراكب، وهذا يمكن عمله، فإن المرآة إذا سامتت شعاع الشمس أحرقت لاسيما ويعضدها البحر، فإن شعاع الشمس من صقال المرآة وضوء الماء ولمعانه تحرق، ولا شك فيه، قيل كانت المرآة ستين ذراعًا، وطول المنارة ثلاثمائة ذراع».

وأشار الهروى إلى دار كانت بالمدينة أثناء زيارته لها اسمها دار الاسكندر فقد قال: «وبها دار الاسكندر» ولم يحدد موضعها للأسف، ويبدو أن أهالى المدينة كانوا يطلقون على أحد المبانى الأثرية القديمة هذا الاسم وينسبونها إلى الاسكندر، ولا يمكن أن يتجه الذهن إلى أن المقصود بهذه الدار قبر الاسكندر، فإن الهروى أشار فى موضع آخر إلى أن بعض الروايات إلى عهده تقول بأن قبر الاسكندر كان داخل المنار، قال: «ويقال إن قبر الإسكندر بالمنارة مع ارسطاليس، والله أعلم بذلك».

وأشار الهروى إلى المسجد المعروف الآن فى الإسكندرية بمسبجد النبى دانيال، وإنما ذكره على أنه قبر لا مسجد، وقال إنه قبر أرميا النبى، فقد قال: «وبها قبر أرميا النبى عليه السلام بالديماس» والمقصود بالديماس كوم الديماس وهو المعروف بكوم الدكة حاليًا، فالهروى - فيما نعلم - أول مؤلف ورحالة عربى ذكر هذا القبر، ولهذا الوصف المختصر الذى أورده أهمية

كبيرة، لأنه يدل على أنه لم يكن حتى أواخر القرن السادس بكوم الديماس مسجد يسمى مسجد النبى دانيال، وإنما كان به قبر يعرف بقبر أرميا النبى، ومعنى هذا أن المسجد الذى بنى فوق هذا القبر بنى بعد القرن السادس الهجرى قطعاً ، ونسب نسبة خاطئة إلى النبى دانيال، وهذا النص كذلك ينفى الشائعات التى كانت تتداول أخيرًا على أن هذا القبر هو قبر الاسكندر، إذ لو كان هذا شائعًا لدى أهالى الإسكندرية عند زيارة الهروى للمدينة، ولو على سبيل الأسطورة، لنقله عنهم، ولما أشار إلى الرواية الأخرى التى تقول باحتمال أن يكون قبر الإسكندر داخل المنارة.

وأشار الهروى إلى الخليج وانسيابه فى شوارع المدينة وكثرة الصهاريج فى دورها فقال:

«ومن عجائب الخليج إذا زاد النيل تبقى هذه المدينة كأنها قارورة قد وضعت على الماء، ولا يبقى فيها دار إلا ويدخل (إليها) الماء الذى يحتاج إليه من زيادة النيل، والطبقة التى تحت المدينة تمشى فيها كما تمشى فيها فى الشوارع، وهى ثلاث طبقات».

وقد بهر الهروى لكثرة ما فى المدينة من مساجد فقال: «وبها من المساجد والمعابد ما لا رأيته بغيرها» وذكر أن عدد هذه المساجد كانت على عهده فى بعض الأقوال اثنا عشر ألف مسجد، وفى أقوال أخرى عشرون ألف.

والجديد فى وصفه أنه أمدنا بأسماء كثير من هذه المساجد التى لم يبق منها حتى الآن إلا المسجد القديم وهو المعروف بالجامع الغربى.. قال:

«وبها مسجد المواريث يزار، ومسجد سارية، والجامع القديم، ذكروا أن الجامع عمارة الصحابة رضى الله عنهم».

وقال:

«وبها مسجد التوبة والرحمة.. ومسجد النحات عنده شهداء لا تعرف أسماؤهم».

وذكر الهروى كذلك معلمين هامين من معالم المدينة، هما الباب الأخضر ومقبرة وعلة، قال:

«وبها الباب الأخضر يزار» ثم قال: «بها جبانة يقال جبانة وعلة».

٥ - الرحالة عبد اللطيف البغدادى:

وقد زار الرحالة الطبيب عبد اللطيف البغدادى مصر مرتين، الأولى فى عهد صلاح الدين، والثانية فى أواخر القرن السادس الهجرى فى عهد العزيز عثمان والعادل أبى بكر، وكان يلقى

دروسه فى الجامع الأزهر بالقاهرة، وقد طوف فى مدن مصر المختلفة ومن بينها الإسكندرية، وألف كتابًا صغيرًا ضمنه مشاهداته فى مصر، وسماه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، وما قاله عن الإسكندرية قليل، منه ما سبق أن أشرنا إليه من نقده لقراجا والى الإسكندرية على عهد صلاح الدين لتحطيمه السوارى التى كانت تحيط بعمود السوارى وإلقائها فى الميناء الشرقى لحماية أسوار المدينة وتعويق سفن الأعداء.

وقد ضمن كتابه وصفًا دقيقًا آخر لعمود السوارى والمنارة، وذكر فى الفصل الذى عقده للكلام عن نباتات مصر أنه يوجد بالإسكندرية صنف من التفاح «ببستان واحد يسمى بستان القطعة، وهو صغار جدًا قانى الحمرة وأما رائحته فتفوق الوصف وتعلو المسك، وهو قليل جدًا».

وقد حضر البغدادى المجاعة التى أصابت مصر فى سنة ٥٩٥هـ واستمرت إلى ٥٩٧هـ وصحبها وباء خطير قضى على حياة ألوف من السكان، واضطر الأهالى تحت وطأة الجوع إلى أكل بعضهم البعض الآخر، وقد أورد البغدادى فى كتابه وصفًا تفصيليًا لهذه الأحداث، فمما قاله عن أثر المجاعة فى مدينة الإسكندرية:

> «وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة، وأن تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر إلى أربعة عشر وارثًا، وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفًا انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها».

٦ - المؤرخ عثمان بن إبراهيم النابلسى:

ومن المؤرخين المصريين المعاصرين للدولة الأيوبية عثمان بن إبراهيم النابلسى، وقد ولى هذا العالم رئاسة الدواوين فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وله مؤلفان قيمان، أحدهما عن تاريخ مدينة الفيوم ووصفها على أيامه، والثانى عنوانه «كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية».

وهو من أهم المراجع لدراسة النظم الإدارية فى مصر فى العصر الأيوبى، وفى أحد أبوابه يتحدث المؤلف عن عيوب الجهاز الإدارى فى عصره، ومن المآخذ الهامة التى ذكرها إهمال الموظفين لخليج الإسكندرية، وقال إن الخليج:

«كان مبلطًا بأكدان الصلب، وكان ماء النيل يدخله ثمانية أشهر، فصار الآن لا تدخله المراكب إلا مُدَيْدَة يسيرة، وينقطع الوصول إليه من النيل لجفاف فوهته، وكان يصل ماء النيل إلى الثغر إذا دخل النيل فى الذراع الثانى عشر، فصار اليوم لا يدخل فوهته إلا باستكمال ثلاثة عشر ذراعًا، ثم لم يكن له سد يمنعه من الوصول، فأحدث سد عند الكريون، ثم دونه مما يليها

سد ثان يقيم الماء معوقًا به مدة، ثم سد ثالث يعوق الماء عن الثغر مدة أخرى، وكان الماء يخرج من آخر الخليج فى برابخ رصاص قديمًا وضعت وضعًا حكميًا، يجرف الماء ما فى قعره من الطين ويمنعه من الرسوب، ويخرج من تلك البرابخ، ويجرى إلى البحر الملح فأهملت حتى استدت، وصار على ما بلغنى الآن قدام البرابخ رملة عظيمة، بينها وبين البحر الملح».

ثم عقب النابلسى على هذه الحالة السيئة التى وصل إليها الخليج بقوله:

«فلو فتحت هذه البرابخ وفتح طريق الماء حتى يخرج منها ويرمى فى البحر الملح ما احتاج الخليج كل سنة إلى عشر ما يحتاجه بدون ذلك».

وأشار النابلسى بعد ذلك إلى تفكير الملك العادل فى إصلاح حال الخليج وإلى محاولة أخرى حاولها الملك الكامل فى هذا السبيل.. قال:

«وكان قد قيل للشهيد الملك العادل - قدس الله روحه - عن فتح موضع يعرف بالنقيدى، فقال له أرباب الخبرة: يخشى أن تغرم فيه جملة ولا يعلم هل يحصل به نفع أم لا، ونشغل عن الاهتمام بالفوهة الأصلية، فتركه، واهتم المولى الشهيد الملك الكامل - قدس الله روحه - بالفوهة، وغرق أمامها مراكب، وانصلحت مدة».

٧ - المؤرخ سبط ابن الجوزى:

وهكذا ظلت الإسكندرية - نتيجة لعناية ملوك بنى أيوب الدائبة بها - تنمو وتزدهر عمرانيًا وعلميًا وتجاريًا وحربيًا، فيما عدا سنوات المجاعة والوباء القليلة أيام العادل، وسرعان ما استعادت المدينة نشاطها العلمى والعمرانى بعد ذلك بقليل، فقد زارها الواعظ والمؤرخ الكبير سبط ابن الجوزى فى سنة ٦٤١هـ فى عهد الصالح نجم الدين أيوب ووصفها بقوله:

«قدمت الإسكندرية فوجدتها كما قال تعالى: ﴿ذات قرار ومعين﴾[1]، معمورة بالعلماء معمورة بالأولياء، كالشيخ محمد القبارى، والشاطبى، وابن أبى شامة، ووجدتها كما قال القيسرانى فى وصف دمشق:

أرض تحل الأمانى فى أماكنها   بحيث تجتمع الدنيا وتفترق
إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت   على حدائقها الأسماع والحدق»

وقد روى خبر هذه الزيارة ابن تغرى بردى فى كتابه «النجوم الزاهرة» وعقب عليه بقوله:

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٠.

«وأين قول أبى المظفر من قول مجير الدين بن تميم فى وصف الإسكندرية :

ما زرت فيها جانبـًا إلا رأت عيناى فيهـا جنة وحـريرًا

أرض تحل الأمانى فى أماكنها بحيث تجتمع الدنيـا وتفترق»

وقد تـردد سبط ابـن الجـوزى علـى مسـاجد المدينـة ومدارسـها، وخـالط علمائـها، وحضـر مجالسهم وندواتهم، ورحبوا به ترحيبًا كبيرًا كما رحب به أهالى الإسكندرية، فقـد عـرف عنـه أنه واعظ مؤثر يخلب ألباب سامعيه بمواعظه، فطلب إليـه سـكان المدينـة أن يعقـد لهـم بعـض مجالس للوعظ، يقول سبط ابن الجوزى».

«وسألونى الجلوس، فجلست بها مجلسين، فتاب فيها نحو من ألفين».

وأعلن بعد المجلسين عزمه على تـرك المدينـة والرحيـل إلى القـاهرة، فقـام واحـد مـن أهـالى المدينة وأنشد بعض أبيات من الشعر يرجوه فيها إطالة مدة إقامتـه.. قـال: «فلمـا عزمـت علـى العود إلى القاهرة قام بعض أفاضلها فأنشد يقول:

ذكرتم فراقًا، فاستهلت مدامـعى وزاد لهيب النار بين ضلـوعى

وأصبحت ميتا من سمـاع فراقكم، أود بأنى لم أكـن بسميع

فيا أهـل هذا الثغر ترضون غيبة لشمس علـوم آنست بطلـوع

ففى شمسنا قبـل الفراق هنيهة، فلسنا على عـلم بوقت رجـوع

لقد وقفت شمس السـماء ليوسف، وما ذاك من أفعالهـا بشنيع

فنحن ضيوف، والقـراء ثلاثة، وجودك يا مـولى الأنـام شفيعى

يقول سبط ابن الجوزى:

«فكان البيت الأخير هو الباعث إلى أن عززت لهم بمجلس ثالث، ولم أقدر أن أسـافر عنـهم إلا ليلا، لأنهم وجدوا بى كوجد مجنون بليلى».

الباب الرابع

الإسكندرية

فى العصر المملوكى

الفصل الأول : المنشآت الدينية والعلمية فى عصر المماليك.

الفصل الثانى : الإسكندرية فى عصر الظاهر بيبرس.

الفصل الثالث : الإسكندرية فى عصر الناصر محمد بن قلاوون.

الفصل الرابع : الإسكندرية فى عصر الأشرف شعبان.

الفصل الخامس : شفق الغروب، الإسكندرية فى أواخر العصر المملوكى.

الفصل الأول
المنشآت الدينية والعلمية
فى عصر المماليك

ارتفعت مكانة الإسكندرية فى عصر المماليك حتى أصبحت ميناء مصر الأول، وثانى مدينة بعد القاهرة، وذلك لسببين: أحدهما اقتصادى، والثانى حربى.

أما السبب الاقتصادى فمرجعه أن تجارة مصر الخارجية مع الشرق والغرب قد زاد نشاطها وازدهارها فى هذا العصر حتى لقد أصبحت الرسوم التى تجبى على التجارة الخارجية تكون جزءًا كبيرًا من دخل الدولة، وإذ كانت الإسكندرية هى ميناء المرور لهذه التجارة الشرقية والغربية فإنه من السهل أن نتصور مبلغ ما نعمت به المدينة وأهلوها من رخاء وثروة ورفاهية، ومبلغ ما كان لهذه الثروة من أثر فى عمرانها ونموها وازدهارها.

وأما السبب الحربى فمرجعه إلى تحول أنظار الصليبيين - أو بعبارة أدق بقاياهم فى جزر البحر الأبيض المتوسط وأوربا - إلى الإسكندرية بعد أن منيت الحركة الصليبية بالفشل الذريع فى حملتيها على دمياط فى عهدى الملك الكامل والملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد رأت الدولة المملوكية - بعد فشل الحملة الأخيرة - الصواب فى هدم مدينة دمياط حتى لا يفكر الصليبيون فى تجديد الإغارة عليها، وبنيت إلى الجنوب من دمياط القديمة مدينة جديدة بعيدة عن شاطئ البحر.

وأتم سلاطين المماليك الأول الجهود الحربية التى بدأها بنو أيوب، واستطاع السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أن يطهر شواطئ الشام من الصليبيين ويطرد بقاياهم من عكا آخر معاقلهم فى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م).

واستقرت شراذم من هؤلاء الصليبيين بعد خروجهم من الشام فى جزر البحر الأبيض المتوسط، كرودس وقبرص، وعندما حاولوا أن يغيروا من هذه الجزر على مصر كانوا يتجهون دائمًا إلى مدينة الإسكندرية، ولهذا نلاحظ أن جهود سلاطين المماليك تركزت بعد ذلك فى العناية بثغر الإسكندرية عناية دائبة متصلة، واستجاب الأهلون كذلك لهذه الرغبة، فأخذوا يعملون من جانبهم على المشاركة فى تحصين المدينة والدفاع عنها.

أما تخطيط المدينة العام فلم يتغير كثيرًا فى هذا العصر، وإنما بقى هو هـو كما عـهدناه فـى العصور الإسلامية السالفة، وإنما خضعت المدينة فى هذا العصر المملوكى لشىء من التغـير تبـدو مظاهره فى زوال بعض المنشآت القديمة المعروفة، وإقامة منشآت جديدة كثيرة هى صدى للرخاء الاقتصادى الذى نعمت به المدينة فى معظم سنى هـذا العصـر، وللعنايـة البالغـة التـى أسبغها معظم سلاطين المماليك على المدينة.

أما المنشآت الجديدة فكانت فى معظمـها مـن وحـى الـروح التـى سـادت العصـر وهـى روح الجهاد الدينى: الجـهاد بالسـلاح، والجـهاد بـالعلم، لهـذا امتـدت الحركـة التـى امتـاز بـها العصران الأيوبى والمملوكى، وهى حركة إنشاء المدارس والخوانق والربـط والزوايـا حتـى شملـت الإسكندرية، فانشىء فى الإسكندرية فى العصر المملوكى عدد كبير من هـذه المؤسسـات العلميـة التى تقوم - فى معظمها - على أساس من التصـوف ومـا يسـتتبعه مـن شـعر صوفـى ودراسـات وابتهالات صوفية - وفى أقلها - على التفقه فى العلوم الدينية المختلفة. وخاصة علم الحديث.

وفيما يلى إحصاء بأهم هذه المؤسسات العلميـة والدينيـة التـى أقيمـت فـى العصر المملوكـى جمعنا شواردها من المصادر التاريخية المختلفة، وإن كنت أعتقـد أن مـا أهمـل ذكـره المؤرخـون أكثر بكثير مما ذكروه.

١ - رباط أطكين الواسطى:

وهـو مـن القليـل الـذى بقـى، والبـاقى منـه حتـى اليـوم جـزء صغـير ويقـع شـرقى مسـجد أبى العباس المرسى، وقد تحول إلى زاوية صغيرة يتصـل بـها مـن الناحيـة القبليـة قبـة صغـيرة يتوسطها قبران، ويوجد أمام الشرقى منهما لوح من الرخام منقـوش عليـه اسم صـاحب الربـاط والقبر وسنة وفاته، وهذا هو النص:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبى ﴿كل نفس ذائقة المـوت وإنمـا توفون أجوركم يوم القيامة﴾ سورة آل عمـران (الآيـة) ١٨٥ توفـى الشـيخ السـعيد الأمين المفضل المرتضى أطكين شهاب الدين أبو علـى منصـور، بـن الشـيخ السـعيد الأمين أبو الفتوح نصر، ابن الشيخ أبى الفضل جعفر الواسطى القاضى العدل، ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف، سنة اثنتين وسبعين وستمائة، رحمه الله تعالى ونور ضريحه».

٢ - رباط سوار:

وكان يقيم به أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبى المتوفى سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م).

٣ – مدرسة عبد اللطيف بن رشيد التكريتى المعروفة بدار الحديث التكريتية:

مؤسسها عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن سديد الربعى التكريتى نزيل الإسكندرية ومن رؤساء الكارم، كان أحد كبار تجار الإسكندرية وعلمائها فى القرن السابع الهجرى، وتوفى فى سنة ٧١٤ هـ عن ست وسبعين سنة وقد بقى من هذه المدرسة جزء يعرف الآن «بمسجد أبو على» بشارع البلقطرية بقسم الجمرك، وقد أنشئت هذه المدرسة أصلا لتدريس الحديث ومذهب الشافعى، وقد تحولت فى القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) إلى زاوية صغيرة، ولازالت توجد بداخلها وفوق محرابها لوحة تذكارية عليها تاريخ إنشائها واسم منشئها، ونص ما عليها:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم، وإن المساجد لله، فلا تدعو مع الله أحدًا﴾ أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجى رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتى، لتلاوة الكتاب العزيز، وقراءة الأحاديث النبوية، وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى - رحمة الله عليه - فى شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه.

٤ – مدرسة عبد اللطيف بن محمد بن مسند:

أنشأها عبد اللطيف بن محمد بن مسند، وكان أحد تجار الكارم بالثغر ومن المشتغلين بالعلم، وبعلم الحديث بصفة خاصة، وتوفى سنة ٧١٤ هـ.

٥ – مدرسة عبد اللطيف بن أحمد بن الكويك:

بناها عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبى الفتح بن الكويك التكريتى الأصل، وأسرة بنى الكويك كانت من أكبر أسر الإسكندرية فى القرنين السابع والثامن الهجريين، وكان معظم أفرادها من تجار الكارم واسعى الثراء، ومن المشتغلين بالعلم، وقد تفقه عبد اللطيف هذا فى مذهب الشافعى وتلقى الحديث على كبار علماء الإسكندرية، وكان كثير الرحلة، وتوفى ببلاد التكرور سنة ٧٣٤ هـ، ونبغ من أولاده وأحفاده عدد من العلماء ترجم لهم ابن حجر فى كتابه «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة».

٦ – دار الحديث النبيهية:

لسنا نعرف اسم منشئها أو متى أنشئت، وقد ذكر ابن حجر اثنين من الشيوخ الذين تولوا التدريس بها، وهما إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن الغرافى، وأخوه تاج الدين، وكان

إبراهيم واحدًا من كبار علماء الإسكندرية فى القرن السابع الهجرى، وتوفى بها سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤م).

٧ - رباط الهكارى:

أنشأه خارج باب رشيد محمد بن الأمير زين الدين أبى المفاخر باخل ابن عبد الله الهكارى (متولى ثغر الإسكندرية فى عصر الملك الصالح نجم الدين أيوب) توفى سنة ٦٨٣ هـ ودفن فيه.

٨ - خانقاه بيليك المحسنى:

أنشئت فى أواخر القرن السابع الهجرى، وتولى مشيختها وقتًا ما موسى بن أحمد بن محمود الأقصرى المتوفى سنة ٧٤٠هـ.

٩ - مسجد أبى العباس المرسى:

توفى هذا الصوفى والعالم الكبير فى ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧م) فدفن فى قبره المعروف بالجبانة القديمة إزاء رباط الشاطبى خارج باب البحر من ظاهر الإسكندرية بمحرس سوار قريبًا من قبة المغاورى، وظل قبره قائمًا دون بناء يحيط به، ويقصده الزوار للتبرك به إلى أن كانت سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧م) حيث زاره كبير تجار الإسكندرية وقتذاك الشيخ زين الدين ابن القطن وبنى على القبر ضريحًا وقبة، وأنشأ له مسجدًا حسنًا ذا منارة مربعة الشكل وأوقف على الجميع بعض أملاكه.

١٠ - المدرسة الخضراء:

بنيت فى عصر السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى، وقام على بنائها الشيخ خضر ابن أبى بكر بن موسى المهرانى أحد الصوفية المتعبدين، وكان مقربًا للسلطان بيبرس وذا خطوة كبرى لديه، وقد أشار إلى هذه المدرسة ابن شاكر الكتبى فى كتابه «فوات الوفيات»، وذكر أن المدرسة بنيت مكان كنيسة قديمة كانت موجودة فى الإسكندرية تعرف بكنيسة الروم، قال ابن شاكر:

> «وهدم (الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العدوى) الشيخ المشهور شيخ الملك الظاهر بالإسكندرية كنيسة الروم، وبناها مدرسة وسماها: الخضراء»

١١ - مدرسة الدماميني:

بناها في أوائل القرن الثامن الهجرى (١٤ م) تاج الدين عتيق بن محمد بن سليمان المخزومي الدماميني، وأسرة بني الدماميني واحدة من كبريات الأسر السكندرية في العصر المملوكي، ذات ثراء عريض ومكانة، وقد نبغ من أفرادها أكثر من واحد، وكانوا في معظمهم من المشتغلين بالتجارة وبالعلم في وقت واحد، وقد ذكر هذه المدرسة الأدفوى في «الطالع السعيد في أعيان الصعيد» فقال في ترجمته لعتيق بن محمد الدماميني:

«وبنى مدرسة بالمرجانيين بالثغر، ووقف أوقافًا كثيرة» - وأضاف أنه توفى في القاهرة في سنة ٧٣١ هـ.

١٢ - مدرسة الكويك:

أشار إلى هذه المدرسة خليل بن شاهين الظاهرى المؤرخ وأحد نواب الإسكندرية في القرن التاسع الهجرى (١٥ م)، وذكر أن بانيها الكويك كان من كبار تجار الثغر، وأنه صرف على بنائها من ربح تجارته في يوم واحد، وقد أراد بهذا الاستشهاد أن يشير إلى ضخامة ثراء هذا التاجر قال:

«حكى أنه كان بالثغر تاجر يقال له الكويك، عمر بها مدرسة مشهورة الآن (أى في أيامه) صرف عليها جملة من متحصل فائدة يوم واحد فقط».

١٣ - منشآت الأمير قجماس الاسحاقى الظاهرى نائب المدينة:

ولى الأمير قجماس نيابة المدينة من سنة ٨٧٥ هـ إلى ٨٨٠ هـ، وكان شغوفًا بالعمران فأنشأ في المدينة عددًا من المنشآت الدينية أشارت إليها المراجع التاريخية - وخاصة السخاوى في الضوء اللامع - فقد ذكر أن الأمير قجماس بنى بمدينة الإسكندرية مسجدًا خارج باب رشيد، وأنشأ إلى جانبه تربة له، وخانًا يأوى إليه المسافرون لينالوا شيئًا من الراحة قبل دخولهم أو بعد خروجهم من المدينة، كما أنه أنشأ رباطًا خارج باب البحر، وجدد جامع الصوارى خارج باب سدرة.

وقد زالت هذه المبانى جميعًا ولم يبق لها أثر.

الفصل الثانى
الإسكندرية
فى عصر الظاهر بيبرس

فى منتصف القرن السابع الهجرى (١٣ م) انتهى حكم بنى أيوب فى مصر ، وخلفتهم دولة المماليك ، وقد انقضت منذ مقتل تورانشاه آخر سلاطين بنى أيوب ، ومقتل قطز رابع سلاطين المماليك ، عشر سنوات كاملة (٦٤٨هـ - ٦٥٨هـ) كانت الدولة الجديدة فى خلالها تمر بدور التجربة ، تقاوم التحديات المختلفة من قوى الأيوبيين والصليبيين والمغول فى الشام ، ومن قبائل العربان ، وصراع أمراء المماليك فى الداخل ، وتحاول فى نفس الوقت أن تثبت أقدامها فى الملك وتدعم كيانها .

وقد شغلت شجرة الدر بأزمة شرعية سلطنتها ، وشغل المعز أيبك بصراعه مع شجرة الدر وأمراء المماليك وشغل ابنه نور الدين على بألعابه وملاهيه ، ثم شغل قطز بالخطر الأكبر ، خطر المغول ، ولهذا لم يستطع واحد منهم أن يفرغ للنظر فى شئون البلاد الداخلية وما يتصل بتحصينها أو راعية مدنها وثغورها .

ولم يكد يخلص الملك لبيبرس فى سنة ٦٥٨ هـ حتى أدرك أن أمامه جهادًا طويلا ضد الخطرين الجاثمين فى الشام وما يليها شرقًا : خطر الصليبيين وخطر المغول، وأدرك كذلك أنه لا يستطيع أن يترك مصر ويفرغ لجهاده المزدوج هذا إلا إذا أمن على مصر وثغورها ووسائل الدفاع عنها ؛ ولهذا بدأ منذ الأيام الأولى لتوليه العرش يوجه عنايته كلها إلى ثغرى مصر الشماليين (دمياط والإسكندرية) .

ففى هذه السنة ٦٥٨ كان بيبرس على حصار حصن الأكراد فى شمال الشام ، وهناك بلغه أن صاحب قبرص خرج منها فى أسطوله قاصدًا عكا ، فأراد بيبرس أن ينتهز هذه الفرصة ويهاجم قبرص أثناء غياب صاحبها ، فأصدر أمره إلى رؤساء أساطيله فى مصر بالخروج إلى قبرص ومهاجمتها ، فجهزت سبعة عشر شينيًا ، وتولى قيادتها : الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر (الفسطاط) ، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية ، وشرف الدين علوى بن أبى المجد بن علوى العسقلانى رئيس دمياط، وجمال الدين مكى بن حسون مقدمًا على الجميع .

ويفهم من هذا النص أنه كان فى مصر دور صناعة ثلاثة: فى الفسطاط ، وفى الإسكندرية ، وفى دمياط ، ولكل دار صناعة أسطول ، ولكل أسطول رئيس أو قائد أو أمير بحر ، ويرأس الجميع فى الغزوات رئيس أو مقدم عام .

ولم يكتب التوفيق لهذه الغزوة البحرية ، فإن السفن وصلت إلى قبرص ليلاً ، وبعد وصولها بقليل هبت عليها ريح عاصفة ألقت بعض الشواني علي البعض الآخر، فتحطم منها أكثر من أحد عشر شينيا ، وأخذ من فيها من الرجال والصناع أسرى، وكانوا زهاء ألف وثمانمائة نفس، وسلم ناصر الدين رئيس مصر ، وابن حسون القائد العام، وعادوا إلى مصر بالسفن القليلة السالمة .

ويقول ابن عبد الظاهر تعقيبًا على أخبار هذه الغزوة فى كتابه (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر) : فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس إلى الغاية .

وفى هذه الأثناء وصلت إلى بيبرس – وهو على حصن الأكراد كذلك – أنباء تفيد أن سفن الفرنج دخلت ميناء الإسكندرية وأخذت مركبين للمسلمين ، فعاد من فوره إلى الديار المصرية ووصلها ثانى شعبان من سنة ٦٥٨ هـ.

وبعد وصوله تكاثرت الأخبار تنذر بخطورة الموقف ، فورد عليه البريد أولاً من الشام ، وبه ما يفيد أن الفرنج قاصدون الساحل ، والمقدم عليهم شارل أخو ريد افرنس ، وربما كان محطهم عكا (والمقصود الحملة الصليبية التى خرجت بقيادة لويس التاسع وقصدت إلى تونس ، وانتهى بها الأمر إلى الفشل ، وموت لويس هناك ، وقد كانت الشائعات تشير عند خروجها إلى أن هدفها سواحل الشام لا تونس) .

ولم تمض أيام حتى تلقى بيبرس أنباء أخرى تذكر أن اثنى عشر مركبًا للفرنج عبروا على الإسكندرية، ودخلوا ميناءها ، وأخذوا مركبًا للتجار واستولوا على ما فيه وأحرقوه، يقول ابن عبد الظاهر :

(ولم يجسر والى الإسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغيبة رئيسها فى مهم استدعاه الملك الظاهر بسببه) .

هذه النذر المتتابعة دفعت بيبرس إلى توجيه كل عنايته لتحصين شواطئ مصر الشمالية وترميم حصونها وأبراجها ، وإقامة الاستعدادات الدفاعية ، والاهتمام بالثغور، وبخاصة ثغر الإسكندرية ، وبدأ فأصدر أوامره باتخاذ احتياطات حربية خاصة تذكرنا بالاحتياطات المستحدثة التى كانت تتخذ فى الحرب العالمية الثانية وقاية للمدن وساكنيها من خطر هجمات

الطائرات ، يقول ابن عبد الظاهر تعقيبًا على حادث هجوم سفن الفرنج على ثغر الإسكندرية ، واغتصابه إحدى سفن تجارها :

(ولما بلغ الملك الظاهر ذلك بعث أمر بقتل الكلاب فى الإسكندرية ، وألا يفتح أحد حانوتا بعد المغرب ، ولا يوقد نارا فى البلد ليلاً ، ثم تجهز بسرعة وخرج نحو دمياط يوم الخميس خامس ذى القعدة فى البحر) .

وبدأ بيبرس سلسلة من الإنشاءات والتحصينات فى كل ثغور مصر الشمالية ، ففى السنة التالية ٦٥٩ أمر بعمارة أسوار الإسكندرية وحفر خنادقها وإصلاح الواهى منها ، ورتب كذلك جملة من المال تنفق فى كل شهر ، وفى رشيد بنى مرقبًا لكشف البحر ، وفى دمياط أمر بردم فم البحر (أى مصب فرع دمياط) (فخرج جماعة من الحجارين، وألقوا فيه القرابيص (أى كتل الأحجار) حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله) .

واستكمالا لهذه الاستعدادات الحربية يبدأ ينظر فى أحوال الأسطول فوجد - كما قال ابن عبد الظاهر - أن :

(من كان قبله قد أهمل أمور الشوانى - وهى خيل البحر وسور الثغور ، وما برحت الملوك تهتم بهذا الأمر وتقطع رجالها الاقطاعات ، فوجد الأمراء قد أخذوا جماعة من رجالها فى الحراريق وغيرها ، فأعادها إلى ما كانت عليه فى الأيام الكاملية والصالحية ، واحترز على الحراج (الغابات) ومنع من التصرف فى أعواد العمل ، وأمر بعمارة شوانى الثغرين (دمياط والإسكندرية) ، ونزل بنفسه إلى الصناعة ، ورتب ما يجب ترتيبه فى مصالح الشوانى ، وأحضر شوانى الثغور من الحراريق والطرايد والسلالير) .

هذا ما ذكره ابن عبد الظاهر ومنه نستخلص أن الملك الظاهر بيبرس بدأ يدرس أحوال الأسطول المصرى ، فوجد أن الشوانى - وهى السفن الحربية الكبرى -- قد أهملت وقلت العناية بها ، بل لقد نقل الأمراء ملاحيها إلى حراريقهم ، أى سفنهم الخاصة ، فبدأ يتخذ إجراءات كثيرة ليعيد الأسطول إلى الحالة التى كان عليها فى أيام الملكيين الأيوبيين الكامل محمد والصالح نجم الدين أيوب ، ومن هذه الإجراءات أنه (احترز على الحراج ، ومنع من التصرف فى أعواد العمل) ، ومعنى هذا أنه استولى على ما بمصر من غابات ، ومنع التصرف فيما ينبت بها من أعواد الشجر المستقيمة التى تصلح شرعًا للسفن .

ثم أمر بعمارة شوانى الثغرين ، أى إصلاح وترميم السفن الحربية الموجودة بثغرى دمياط والإسكندرية ، واتجه بعد ذلك بنفسه إلى دار الصناعة بالفسطاط ، وأصدر أوامره بتيسير

ما يساعد عل ترميم الشوانى وإعدادها ، وأمـر كذلـك باسـتدعاء السـفن الحربيـة الموجـودة فـى الثغور الشمالية ، وكان عددها أربعين قطعة من أنواع مختلفة ، فمنها الحراريق ومنها الطرايد، ومنها السلالير – وكلها سفن حربية مختلفة الأحجام والأسماء –، وقصد بيبرس باستدعائها أن يخضعها مع بقية سفن الأسطول بصناعة الفسـطاط لعمليـة الإصـلاح والـترميم والصيانـة لتصبح صالحة بعد ذلك للقتال ، وبعد أن تمت كل هذه العمليات قامت هـذه السـفن بعـرض عسـكرى فى نهر النيل شهده السلطان بيبرس وفى صحبته الخليفة ، قال ابن عبد الظاهر :

(وفى يوم الأحد تاسع عشر من شهر رجب سنة تسع وخمسـين ركـب الخليفـة ومولانا السلطان من القلعة ، ونزلا جميعًا إلى مصر (الفسطاط) ، ثم ركبا الحراريق، وتفرجا ، وطلعا إلى قلعة الجزيرة (الروضة) ، وجلسـا بمقعـد البانياسـى ، ولعبـت الشوانى ثم عادا إلى القلعة) .

وظل السلطان الملك الظاهر بيبرس بعد ذلك يولى ثغر الإسكندرية كل اهتمامه ، ويرعاه بعـين رعايته ، ويتردد عليه لزيارته والإشراف على شئون أهليه .

كانت أولى زيارات بيبرس للإسكندرية فى سنة ٦٦١هـ ، وقد وصـف هـذه الزيـارة مؤرخـان معاصران ، أحدهما مؤرخ بيبرس ومؤلف سيرته محيى الدين بن عبـد الظـاهر، وثانيـهما مـؤرخ بنى أيوب جمال الدين بن واصل .

والوصف الذى أورده ابن واصل فى كتابه (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) أكثر تفصيـلا واستيعابًا لأخبار الزيارة ، فقد كان مصاحبًا لبيبرس فى رحلته إلى الإسكندرية .

وقد ذكر المؤرخان أن بيبرس بدا رحلته فى اليوم السادس من شـوال سـنة ٦٦١هـ، وانفـرد عبد الظاهر بوصف مقدمات الرحلة -- فقال إن السلطان خرج وفى معيته خـواص دولتـه وأعيـان حاشيته وأنه قضى الأيام الباقية من شوال فـى الصيـد بمنطقـة تروجـة – إحـدى مـدن مديريـة البحيرة –، وفى الصحراء المجـاورة لهـا ، وعنـى بالآبـار التـى تمـد هـذه المنطقـة الصحراويـة بالمياه، فعين أحد حجابه وهـو الأمـير شـجاع الديـن الزاهـدى للإشـراف عليـها (واحضـر مـن الإسكندرية الرجال لحفر الآبار ونزحها من الأكدار) .

وكان قد سبقه إلى الإسكندرية الوزير بهاء الدين ، فأحسن إلى أهلها ، وحصل جمـلا كثـيرة من الأموال للخزانة السلطانية ، وكان من جملة ما حمله خمسة وتسعون لفة من القماش مما هو موجود فى الإسكندرية ، ومما يصنع بها ، وقد أشار ابن واصل إلى أنواع هـذه الأقمشـة، فقـال إنها كانت من :

(أنواع الأمتعة والحلل والبندقى الرفيع ، والجوخ الأحمر ، وغير ذلك ما لعله لا يوجد فى خزانة ملك عظيم مثله ، فكانت قيمته مائة ألف دينار) .

وقد أشار المؤرخان إلى أن الصاحب بهاء الدين كان رفيقًا بأهالى الإسكندرية وأنه أحسن إلى أهلها (ولم يعامل أحدًا بغير العدل ، ولا ضرب معاملا بمقرعة ولا شتم) ، ونص ابن واصل على أنه ساوى بين أهالى المدينة من المسلمين وبين من بها من تجار الأفرنج فى المعاملة الطيبة، فقال : (والفرنج على نحلهم وكثرة شكاواهم داعون شاكرون) .

ومهد الوزير لزيارة السلطان ، ونظر فى أحوال المدينة ومصالحها ، والأسوار والخنادق والفقراء ووجوه البر كلها).

ولما قضى بيبرس وطره من الصيد فى البرية عاد إلى تروجه وتوجه منها إلى الإسكندرية .

وذكر ابن واصل أن السلطان لما قارب المدينة

(زينت أحسن زينة ونصبت الأبرجة ، وأخرج أهل الإسكندرية ما عندهم من العدد المعدة للجهاد: من القسى ، والغفارات ، والزرد ، والخوذ ، والطوارق ، والجفاتى، والكبورة (نوع من الطبل) ، والكزاغندات ، وزينوا بها الشوارع والأسواق) .

ولا يعنينا من هذا النص مبالغة أهل الإسكندرية فى الاحتفال بمقدم سلطانهم لزيارة مدينتهم ، وإنما يعنينا منه دلالته الصريحة على أن أهل الثغر كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد للجهاد ، وأنهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بجميع أنواع الأسلحة المعروفة فى ذلك العصر من قسى ، وغفارات وزرد ، وخوذ ، وطوارق ، وكزاغندات .. الخ ليشاركوا جيوش الدولة النظامية فى الذب والدفاع عن المدينة إذا طرقها عدو ، يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها تفصيلا ابن واصل فيما قاله بعد ذلك إتمامًا لوصفه ، قال :

(وهكذا ينبغى أن تكون زينة الثغور ، ولقد رأيت برجًا فيه أحسن ما يكون من العدة والكبورة فسألت عن ذلك ، فقيل :

هى لرجل صباغ من بعض العوام ، عمل عدة بألفى دينار وعنده رجال ، يقوم بهم ويعدهم ، وعنده صياقلة وصناع بجامكية لأجل افتقاد هذه العدة ، وهو من آحاد العوام الذين لا يعرفون) .

وانتقل ابن واصل بعد ذلك إلى وصف دخول بيبرس إلى الإسكندرية وما فعله أثناء مقامه بها قال :

(ولما كان مستهل القعدة سنة إحدى وستين وستمائة ركب الناس على اختلاف طبقاتهم ، واجتمع القبائل والرسل والتجار من الفرنج ، وجميع الناس على قدر منازلهم إلى لقاء السلطان ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، وساق فدخل من باب رشيد ، فتلقاه أهل الإسكندرية بالسرور والفرح ، والدعاء والابتهال إلى الله تعالى بدوام ملكه ودوام عزه ، ورأى الناس من حسن صورته وعظم مهابته ما بهر عقولهم .. وتمنوا دوام دولته ، وما استقر في مجلسه حتى استدعى بالخزائن والأمتعة والخلع ، وشرع في عرض ذلك بنفسه ، وتعبيته لمن يعينه من الأمراء على قدر مراتبهم ، فاستوعب نهاره كله ، وأصبح يأمر بمهمات الثغر وأمور المدينة ، وكان قد أمر بأن يكون لقدومه أثر ، ولوفوده ذكر جميل ..) ورسم بمكتوب شريف يقرأ على رؤوس الأشهاد بصلة أرزاق الفقراء والمساكين وشمولهم بالعواطف والمراحم ، ولما قرب وقت الجمعة ركب الملك الظاهر وحضر إلى الجامع ، وبسط المقصورة التى جرت عادة الملوك أن تصلى فيها لسماع الخطبة ، فجلس تحت المنبر وخطب الخطيب ، فأمره بالدعاء لولى العهد بعده الملك السعيد بركة خان ، وللملك بركة ، وفرغ من الصلاة ، وقرىء المنشور الشريف بما رسم للفقراء والمساكين) .

والجامع المذكور فى هذا النص هو الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة وقتذاك .

وفى اليوم التالى – وهو يوم السبت – ركب السلطان بيبرس إلى خارج المدينة ولعب مع قواده بالأكرة ، وأقام بعد اللعب حفلا لتوزيع الخلع والعطايا

(فخلع على جميع الأمراء الخلع الفاخرة ، وكذلك على مقدمى مماليكه البحرية ، وخلع على مقدمى الحلقة ، وخلع على خواصه ، وأعطى للأمير أتابك فارس الدين أقطاى ثلاثة آلاف دينار وأرضى جميع العسكر) .

وكان يقيم فى الإسكندرية وقتذاك قطبا الإسكندرية وشيخاها : القبارى والشاطبى ، وكانت للقبارى مكانة ملحوظة فهو يقيم فى بستانه يفلحه ويأكل من رزقه، ورغب بيبرس فى زيارته، وأنبئ الشيخ القبارى بهذه الرغبة فلم يسرع للقاء السلطان، وإنما اشترط أن يأتى السلطان للقائه فى بستانه، فلما آتاه وتحدث إليه لم يكن للشيخ من حاجة يزجيها إلى السلطان إلا نصحه إياه أن يعنى بعمارة الثغر وتحصينه – فقدر بيبرس للشيخ نصيحته، وخرج من عنده فقصد مباشرة إلى أسوار المدينة ، فطاف بها ، وأمر بترميمها والعناية بها ، ثم ذهب بعد ذلك لزيارة الشيخ أبى عبد الله محمد الشاطبى .

وروى أخبار هذه الزيارة فى تفصيل وعن مشاهدة المؤرخ جمال الدين بن واصل قال :

(وحدثت نكتة غريبة ، وهى أن شخصًا كان قد حضر وقال : إن الشيخ قطب الدين القبارى قد استؤذن على حضور السلطان ، فأذن ، – وكان السلطان قد طلب منه الإذن لزيارته – ، ثم حضر شيخ آخر وقال : إن الشيخ قال : لا سبيل إلى النزول إليه (أى إلى السلطان) ولا إلى كلامه إلا من أسفل البستان ، فقال السلطان : أنا رايح لله تعالى، فمن أى مكان شاء يكلمنى ، ولما وصل السلطان أعلم الشيخ قطب الدين القبارى بحضور السلطان ، فأمر بدخوله إليه ، فدخل وحادثه وباسطه ، وجرى فى أثناء ذلك حديث ثغر الإسكندرية وعمارته ، فللوقت تقدم السلطان بإجابة إشارة الشيخ .. وعاد بعد ذلك من زيارة الشيخ – أعاد الله بركته – ودار على أسوار المدينة ، ونظر فيها وأمر بما يجب فى أمرها ..) .

ومضى بيبرس بعد ذلك لزيارة الشيخ الشاطبى (واستعرض حوائجه ، فقال الشيخ :

(ليست لنا حاجة، لأن راتب السلطان علينا، ونحن من نعمته فى أنعام تفضل علينا وعنا.

وزار بعد ذلك قبور مشايخ ودعا عندهم) .

ويبدو أن أهالى الإسكندرية انتهزوا فرصة وجود السلطان بينهم وفى مدينتهم فتقدموا إليه بكثير من الشكايات يطلبون فيها إسقاط الضرائب أو إصلاح بعض الأوضاع الاجتماعية ، أو تغيير بعض الموظفين ، وقد استمع السلطان لهذه الشكاوى ، وعقد بعض المجالس لمناقشتها مع المسئولين ، وعمل على إنصاف الأهالى وتحقيق رغباتهم .

فقد ذكر محيى الدين بن عبد الظاهر أن أهل الإسكندرية كان قد كثر ألمهم بسبب استخراج ربع دينار على كل قنطار يباع ، وأنهم تقدموا بالشكوى إلى السلطان أثناء زيارته هذه لمدينتهم (فحطه عنهم وأبطله عن الرغبة) .

وذكر ابن عبد الظاهر كذلك أن رجلا من أهالى الإسكندرية يدعى ابن البورى حضر إلى السلطان وادعى أن بالثغر أموالاً ضائعة ، وأعطاه بها أوراقًا ، وكذلك آخر يعرف بالمكرم بن الزيات كتب أوراقًا ، فعقد السلطان مجلسًا فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة للنظر فى هذه الشكوى ، حضره أتابك الجيش أقطاى ، والوزير الصاحب بهاء الدين ، والقاضى والفقهاء ، وقرئت الأوراق ، وصار السلطان كلما فتح له باب مظلمة سده ، ويعود على المذكورين بالإنكار) .

وفى يوم الخميس ثامن ذى القعدة جلس السلطان (بدار العدل ، وبسط المعدلة) ، ثم أمر بعد ذلك بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيات .

ولهذا النص أهمية خاصة لمن يدرس الحياة الاجتماعية فى الإسكندرية فى ذلك العصر، فمنه ينصح أنه كان بالمدينة عدد من نساء الأفرنج يمتهن البغاء ، ومن المحتمل أن يكن قد وفدن على الثغر أصلا لامتهان هذه المهنة ، أو لعلهن أتين للترفيه عن تجار الفرنج بالإسكندرية .

ويبدو كذلك أن أهالى الإسكندرية تقدموا بالشكاوى ضد قاضى المدينة بدر الدين بن أبى الفرج أثناء وجود السلطان بينهم ، وأنه اضطر إلى عزله وتعيين ناصر الدين بن المنير مكانه ، وقد أثير نقاش حول هذا الموضوع أثناء اجتماع بيبرس بالشيخ القبارى انتهى، بهذا العزل وهذا التعيين، أشار إلى هذا ابن واصل فقال فى ختام حديثه عن المقابلة بين السلطان والشيخ القبارى :

(ووقع بعد ذلك التعيين على القاضى ناصر الدين أحمد (ابن المنير) ففوض إليه الخطابة والقضاء ، ورسم له بالخلع وكتابة التقليد ، وأمر بالوصية على القاضى بدر الدين ابن أبى الفرج - القاضى المعزول - ، وكف الأذى عنه وإبقاء جامكيته وما كان له عليه، وأن تزاد حرمته وإكرامه) .

ويبدو أن بيبرس لجأ إلى تعيين ناصر الدين بن المنير فى منصب الخطابة والقضاء استجابة لوساطة القبارى ، وأنه لم يكن مرتاحًا لهذا التعيين ، أو أنه أنكر عليه بعض تصرفاته بعد تعيينه ، فإن ابن عبد الظاهر يذكر أن بيبرس لم يكد يصل إلى القاهرة بعد عودته من الإسكندرية حتى :

(أعاد الفكرة فى قضاء الثغر المحروس، ورأى توليته لرجل غريب ؛ فوقع الاختيار على الفقيه العالم برهان الدين المالكى ، وهو زاهد عابد يأوى فى مسجد بمصر ، فقلده قضاء الإسكندرية، وتوجه إليها، وفوض الخطابة للقاضى زين الدين بن أبى الفرج الذى كان حاكمًا، وصلح الحال بهذا التدبير).

وظلت عين بيبرس على الإسكندرية يتولاها بعنايته كلما احتاجت إلى رعايته ، ويزورها فى المناسبات الحازية ليشرف على شئونها العمرانية والتجارية والحربية .

ففى سنة ٦٦٢هـ كان خليج الإسكندرية قد استد وامتلأت فوهته بالطمى ، وامتنعت نتيجة لذلك الملاحة فى هذا الخليج ، وانقطعت السفن أن تصل بالتجارة إلى الإسكندرية ، فأصدر بيبرس أوامره إلى الأمير عز الدين أمير جاندار لعمارة هذا الخليج ، فأشرف على إعادة حفره عند مدينة النقيدى ، وأمر ببناء مسجد تذكارى هناك سماه باسم الملك الظاهر ، ويعقب ابن عبد الظاهر على هذا الخبر فيقول أن ملوك الأيوبيين - وخاصة الملك الصالح نجم الدين أيوب - كانوا قد :

(اهتمو بهذا البحر ، وغرموا عليه الأموال ، وما حصل له مقصود ، وباشر ذلك العمل تعاسيف ناظر الدواوين، وأخر الله هذه الحسنة لتكون فى دولة هذا السلطان (بيبرس)) .

وفى الشهر الأخير من نفس السنة (ذى الحجة ٦٦٢هـ) خرج بيبرس من القاهرة متجهًا إلى مدينة الإسكندرية ، وكعادته تخلف فى الطريق للصيد فى برارى مديرية البحيرة ، واتخذ طريقه هذه المرة عبر وادى النطرون (وكان يسمى فى العصر الإسلامى وادى هبيب) ، وزار الأديرة القبطية المتناثرة فى هذا الوادى وانتقل إلى مدينة تروجة، ونظر فى أحوال العربان، ثم انتهى به المسير إلى مدينة الإسكندرية ، وصلى - كما يقول ابن عبد الظاهر -

(فى الجامع الغربى ، وعم جميع الأمراء والمفاردة وخواصه بما فرقه عليهم من الأموال والأقمشة عمل دار الطراز، والاسكرلاط[1] والبندقى وغيره ، وركب يوم السبت وتسابق الأمراء قدامه بالخيول ، ولعب الكرة بميدان الإسكندرية ، وزار الشيخ الشاطبى) .

وعاد بيبرس بعد ذلك إلى القاهرة .

وفى سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) لاحظ بيبرس أن خليج الإسكندرية قد طمرته الرمال فى بعض أطرافه ، فسافر إلى الإسكندرية بنفسه .

(واهتم بحفر خليجها ، وباشر الحفر بنفسه ، فعمل فيه الأمراء وسائر الناس حتى زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج) .

وزار بيبرس الإسكندرية مرة رابعة فى سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) ليشرف على شئونها ، وبعد وصوله إلى المدينة خلع على الأمراء ، وحكل إليهم التعابى والنفقة ، ثم خرج فلعب الكرة ظاهر الإسكندرية .

وفى سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) ورد الخبر بحركة الفرنج إلى ثغور مصر ، فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى ، ونصب على أسوار الإسكندرية نحو مائة منجنيق (لإحكام الدفاع عنها) .

وفى سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) زار بيبرس الاسكندرية زيارة خامسة، ولاحظ أن منارها قد تهدمت أركانه وتشعث بنيانه، فأمر ببناء ما تهدم منه، وأنشأ فى أعلاه مسجدًا مكان قبة كان قد أقامها هناك أحمد بن طولون، ثم أسقطتها الرياح فى سنوات سالفة.

---

(١) أسكرلاط أو أشكرلاط نوع من القماش قرمزى اللون كان يرد من أيرلندة (ecarlate) .

الفصل الثالث

الإسكندرية

فى عصر الناصر محمد بن قلاوون

تدل العناية الدائبة التى أسبغها بيبرس على مدينة الإسكندرية على تطور فى تاريخ هذا الثغر المصرى فى عصر المماليك، ولا يوضح هذا التطور إلا نظرة سريعة نلقيها على تاريخ المماليك السياسى.

قضى ملوك بنى أيوب حياتهم كلها فى نضال عنيف مستمر لطرد الصليبيين من الشام، وأدرك الصليبيون من هذا النضال أن مصر هى مركز قوة المسلمين، ولهذا خضعت سياستهم فى النصف الثانى من العصر الأيوبى لتغير واضح، فاتجهوا بحملاتهم عن شواطئ الشام إلى شواطئ مصر، وكانت دمياط هدف هذه الحملات، فهى أقرب الثغور المصرية إلى بيت المقدس مطمح أنظارهم.

ونزلت بدمياط جيوش جان دى بريين فى عهد السلطان الملك الكامل محمد، وجيوش لويس التاسع فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولكن هذين الملكين منيا بالخيبة والفشل، وأسر ثانيهما، وسجن بالمنصورة وقتًا إلى أن أطلق سراحه والدولة الأيوبية توشك أن تحتضر، والدولة المملوكية توشك أن تقوم.

ولم تكد تنتهى حملة لويس التاسع على دمياط حتى «اتفق أرباب الدولة بمصر - وهم المماليك البحرية - «على تخريب مدينة دمياط خوفًا من مسير الفرنج إليها مرة أخرى، فسيروا إليها الحجاريين والفعلة، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة، حتى خربت كلها ومحيت آثارها، ولم يبق منها سوى الجامع، وقد أنشئت بعد ذلك دمياط جديدة جنوبى موقع المدينة القديمة.

فدمياط كانت تعتبر - حتي آخر العصر الأيوبى - ميناء مصر الأول، وكانت عناية ملوك الأيوبيين بها تفوق عنايتهم بثغر الإسكندرية، فلما كثرت غارات الفرنج على دمياط ورأى المماليك أنه من الحكمة هدمها حتى لا تتجدد عليها غارات الصليبيين، ورثتها الإسكندرية، فاصبحت ثغر مصر الأول، وغدت تحتل المكانة الأولى، ولهذا لم يكن من الغريب أن يوليها الظاهر بيبرس هذه العناية الفائقة التى لاحظناها، فيزورها - رغم اشتغاله مدة حكمه بنضال

الصليبيين والمغول - خمس مرات، ويشرف بنفسه على ترميم أسوارها وحصونها، ولا يكاد يسمع بعزم الفرنج على التوجه إليها حتى يقيم على أسوارها مائة منجنيق، ثم هو يعيد حفر خليجها ليسهل نقل التجارة منها وإليها.

وأتم سلاطين المماليك الأول الجهود الحربية التى بدأها بنو أيوب، واستطاع الملك الأشرف خليل بن قلاوون أن يطهر سواحل الشام من الصليبيين، ويطرد بقاياهم عن عكا آخر حصونهم فى سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١).

واستقرت شراذم من بقايا الصليبيين بعد طردهم من الشام فى جزر البحر الأبيض المتوسط، وخاصة رودس وقبرص، وعندما حاولوا أن يغيروا من هذه الجزر على مصر كانوا يتجهون دائمًا إلى مدينة الإسكندرية، ولهذا نلاحظ أن جهود سلاطين المماليك تركزت بعد ذلك فى العناية بثغر الإسكندرية عناية دائبة متصلة.

ففى سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢) - فى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون - حدث بالشرق الأدنى زلزال كبير، وأصاب هذا الزلزال فيما أصاب مدينة الإسكندرية ومنارها وسورها وحصونها، قال المقريزى فى حوادث هذه السنة:

«وقدم الخبر من الإسكندرية أن المنار انشق، وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة، وأن البحر هاج، وألقى الريح العاصف موجه حتى وصل باب البحر، وصعد المراكب على البر، وسقط جانب كبير من السور، وهلك خلق كثير».

ثم روى المقريزى بعد هذا أن ما هدم من السور كان ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجًا، وأن السلطان كتب لوالى الإسكندرية لعمارتها، فعمرها. أما المنار فقد عمره بعد ذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى شهور سنة ٧٠٣ هـ.

ومع هذا فإنه يبدو أن العناية بترميم ما هدم من المنار لم تكن كبيرة فقد زاره ابن بطوطة فى رحلته الأولى إلى المشرق فى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥) - أى بعد حادث الزلزال بثلاث وعشرين سنة - وقرر أنه رأى جزءًا منه مهدمًا، قال: «قصدت المنار.. فرأيت أحد جوانبه متهدمًا»..

ولعل السر فى هذا أن الناصر كان قد اعتزم إقامة منار جديد بازاء المنار القديم، لهذا أهمل هذا المنار القديم طول عهده حتى نالت منه يد البلى والخراب، ولم يعد صالحا للاستعمال البتة، فلما زاره ابن بطوطة فى رحلته الثانية فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م - ١٣٥٠م) وصفه بقوله:

«وقصدت المنار عند عودتى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله، ولا الصعود إلى بابه، وكان الملك الناصر - رحمه الله - شرع فى بناء منار مثله بازائه، فعاقه الموت عن إتمامه».

ولهذا الوصف أهمية خاصة، فهو يشير إلى معلم جديد من معالم المدينة وهو المنار الجديد الذى أنشئ بازاء المنار القديم - أى فى نهاية رأس لوكياس أو ورأس السلسلة - وأن هذا المنار بدئ فى بنائه فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، وأنه تم فى عهود من أتى بعده من السلاطين، ويؤكد أقوال ابن بطوطة أننا نرى هذا المنار الجديد مثبتًا واضحًا فى المصورات والخرائط التاريخية التى رسمت للمدينة بعد ذلك بقليل فى القرن الخامس عشر الميلادى وما بعده، وقد سميت المنارة الجديدة باسم برج السلسلة، وسمى البرج والرأس بالسلسلة، لأنه كان موضع مأصر بحرى، أى أنه كان يمتد منه سلسلة ضخمة من الحديد لقفل البوغاز، ومنع سفن الأعداء من الدخول إلى الميناء.

أما أكبر هدية قدمها الناصر لمدينة الإسكندرية فهى الخليج الناصرى، فقد بلغه فى سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) - إبان سلطنته الثالثة - أن خليج الإسكندرية قد طمرته الرمال، فلم تعد مياه النيل تصل إلى المدينة، فأصبح سكانها يشربون من المياه المخزونة فى الصهاريج، وأن السفن لم تعد تصل بالمتاجر إلى الإسكندرية وسافر متولى الإسكندرية إلى القاهرة، وقابل السلطان الناصر، وبين له المنافع التى تعود على المدينة خاصة، وعلى الدولة عامة، لو أعيد حفر الخليج.

وأول هذه المنافع - كما قال - حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية فى المراكب، وفى ذلك توفير للكلف وزيادة فى مال الديوان، والمقصود بالديوان هنا (ديوان الخاص) أى الديوان الذى يشرف على الأموال الخاصة للسلطان، وكانت الإسكندرية أهم موارد هذا الديوان.

وثانى هذه المنافع عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بإنشاء السواقى، وتعمير الضياع وزراعتها، فينمو الخراج بهذا نموا كبيرًا.

وثالثها انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم وشرب مائه دائمًا.

وأعجب السلطان بالفكرة، وندب الأمراء للإشراف على تنفيذ المشروع، وكان يشترك فى حفر الخليج أربعون ألف رجل، «وأفرد لكل أهل ناحية قطعًا يحفرونها حتى كمل».

وتنفيذ هذا المشروع من أهم الأعمال التى تمت فى عصر الناصر محمد بن قلاوون - إن لم يكن أهمها - فقد انتقل بمخرج الخليج من الضهرية (أو الظاهرية - نسبة للظاهر بيبرس - شمال كفر الزيات الحالية بقليل) إلى العطف حيث تخرج ترعة المحمودية الحالية، وأنشأ الجزء الواصل من العطف إلى كفر الحمايدة إنشاءًا، ثم أعاد حفر وتطهير القسم الثانى من الخليج الواصل من كفر الحمايدة إلى الإسكندرية.

وعظمت المنفعة بتنفيذ هذا المشروع:

«فإن السفن جرت فيه طوال السنة، واستغنى أهل الإسكندرية عن شراب ماء الصهاريج وبادر الناس للعمارة على جانبى الخليج، فلم يمض غير قليل حتى استجد عليه ما يزيد على مائة ألف فدان، زرعت بعد ما كانت سباخًا، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والسمسم، وفوق الأربعين ضيعة، وأزيد من ألف غيط بالإسكندرية وعمرت منه عدة بلاد كثيرة، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد فيه».

ويعنينا من هذا الوصف ما يشير إليه المقريزى من آثار حفر هذا الخليج على المدينة تجاريًا وعمرانيًا، وإمكان زراعة ألف غيط جديد داخل مدينة الإسكندرية، وهذه حقيقة توكدها مصورات المدينة، فالأجزاء الجنوبية من المدينة تغطيها - فى هذه المصورات التاريخية - الحقول والبساتين.

وظل هذا الخليج - الذى سمى الناصرى منذ ذلك الحين - يجلب هذه المنافع إلى مدينة الإسكندرية ومديرية البحيرة ستين سنة كاملة، أى إلى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨) حيث قلت العناية بتطهيره، فطمرته الرمال مرة أخرى، «وانقطع الماء عنه، وصار الماء لا يدخل إليه إلا فى أيام زيادة ماء النيل فقط، ثم يجف عند نقصه، فتلفت من أجل هذا أكثر بساتين الإسكندرية وخربت، وتلاشى كثير من القرى التى كانت على هذا الخليج» وسيظل الخليج على هذه الحال السيئة ستا وخمسين سنة أخرى إلى أن يتداركه السلطان الملك الأشرف برسباى بعنايته، فيعيد حفره فى سنة ٨٢٦هـ (١٤٣٢ م).

انتعشت مدينة الإسكندرية بعد إنشاء هذا الخليج الناصرى، ونشطت تجارتها الداخلية والخارجية، فعمرت أسواقها، وكثرت مبانيها، وزادت عناية السلطان بتحصينها، فلما زارها الرحالة ابن بطوطة بعد إنشاء الخليج بخمسة عشر عامًا بهرته بكل ما فيها، ووصفها بقوله:

«هى الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهى الفريدة تجلى سناها، والخريدة تجلى فى حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انتهاؤها.. ولها المرسى العظيم الشأن، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط بالهند، ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك، ومرسى الزيتون ببلاد الصين..»

في سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) وبعد زيارة ابن بطوطة الأخيرة للإسكندرية بسنتين، وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قامت في الإسكندرية فتنة خطيرة كادت تسوء عاقبتها لولا أن تداركها السلطان بحكمته، وموجز هذه الفتنة أن تاجرًا فرنجيًا تنازع مع رجل من أهل الإسكندرية، واستغاث كل من الرجلين بشيعته، فاتسع الخرق، وخرج والي الإسكندرية ليخمد الفتنة، وكان خارج أسوار المدينة عدد كبير من سكان المدينة.

«فلما وافى الليل تزاحموا عند الأبواب يضجون ويصيحون يريدون الدخول وذهب أعيان البلد إلى الوالي، ومازالوا به حتى أمر بفتح الأبواب، فلما كان غد ذلك اليوم تظاهر الأهلون، وقصدوا إلى دار الوالي، وقاتلوا جنده إلى أن اضطر إلى تسريح الطائر بخبر هذه الفتنة إلى السلطان بالقاهرة».

وأرسل السلطان وزيره، وبعض أمرائه إلى الإسكندرية، فمازالوا يعملون الحيلة إلى أن أخمدوا الفتنة وعاقبوا مثيريها، وكان أخوف ما يخافه السلطان أن يقوى الثائرون، فيطلقوا سراح الأمراء المسجونين (وكان بالإسكندرية سجن يرسل إليه السلطان كل من فكر في الخروج عن طاعته من الأمراء) ويستولوا على الأسلحة المعدة للجهاد (وكان بالإسكندرية خزانة للسلاح بها قاعات كثيرة، أنشأ كلا منها سلطان من السلاطين السابقين وسماها باسمه).

لهذا كان أهم ما عنى به الوزير بعد إخماد الفتنة أن استعرض ما بالثغر من السلاح، فوجده «ستة آلاف عدة كاملة، جعلها في قاعة وختم عليها»، ثم عاد وفي صحبته الأمراء المسجونون بالإسكندرية، فأودعهم سجن القلعة بالقاهرة.

ويبدو أن هذه الفتنة كانت بالغة الخطر، وأنها هزت كيان الدولة، فقد سرت أخبارها إلى الأقطار المجاورة وتحدث عنها الناس هناك، فقد سجل ابن بطوطة في رحلته خلاصة حوادثها في دقة لا تختلف كثيرًا عما أورده المؤرخون المصريون في مطولاتهم، وختم وصفه بقوله:

«وبلغنا خبر ذلك بمكة - شرفها الله».

الفصل الرابع
الإسكندرية
فى عصر الأشرف شعبان

توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م)، وخلفه على عرش مصر عدد كبير من أولاده وأحفاده لم تكن لهم شخصيته الفذة، ولاهمته العالية، بل كان معظمهم أطفالاً صغار السن، فاستبد بشئون الملك دونهم كبار الأمراء من المماليك، وكثرت المنافسات بين هؤلاء الأمراء حتى شغلهم النزاع فى سبيل الاستئثار بالسلطان عن العناية بشئون مصر عامة، والثغور خاصة.

وكانت الدعوة لتجديد الحروب الصليبية ضد مصر قد قويت ونشطت حينذاك فى جزر البحر الأبيض وفى ممالك أوربا المختلفة، وكانت الرسل تتوافد على مصر لدراسة أحوالها الداخلية، وكتبت التقارير المختلفة تصف ما كانت تعانيه مصر من اضطراب داخلى صرف الحكام عن العناية بأمور الدفاع والأسطول، وخاصة فى الإسكندرية.

وكانت جزيرة قبرص خير مكان فى شرقى البحر الأبيض المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها.

وكان ملك قبرص بيير، أو بطرس لوزنيان قد خرج من جزيرته وطاف بممالك أوربا المسيحية يثير حماس ملوكها وأهليها، ويطلب منهم أن يقدموا له كل المساعدات الممكنة لإعداد حملة صليبية جديدة على مصر، ولكنه وجد معظم هؤلاء الملوك قد شغلوا بأنفسهم وبمصالح دولهم عن الفكرة الصليبية، فلم يلق منهم غير الوعود، ومع هذا فقد أمده اسبتارية رودس وجمهوريتا جنوة والبندقية ببعض العون.

وخرج بطرس الأول لوزنيان بأسطول ضخم يحمل جيشه الكبير قاصدًا إلى الإسكندرية، فوصل إلى مياهها يوم الخميس ٢١ محرم ٧٦٧هـ (٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥م).

وفى صباح يوم الجمعة خرج أهالى الإسكندرية إلى الفضاء المواجه لجزيرة فاروس خارج الأسوار، وانضم إليهم الأعراب الوافدون من الصحراء، وأخطأ والى المدينة فخرج هو كذلك وانضم إلى الأهلين يريد الدفاع عن المدينة، فنصحه بعض المغاربة بالعودة وبإصدار الأوامر إلى الأهالى كى يدخلوا المدينة ليحتموا جميعًا بأسوارها ويدافعوا عنها من وراء هذه الأسوار.

ولكن الوالى لم يستمع لهذه النصيحة، فقد حسب أنه يستطيع من موقعه على الشاطئ أن يمنع الفرنج من النزول إلى البر،ولكن القبارصة كانوا أكثر استعدادًا وتنظيما، واستطاعوا أن ينزلوا إلى البر، وبعد مناوشات قليلة انتصروا على جموع المحتشدين، فأصيب الأهالى بالذعر الشديد، وأسرعوا بالفرار - وفى مقدمتهم الأمير جنغرا والى المدينة - إلى دمنهور أوإلى القاهرة، واقتحم القبارصة أبواب المدينة ودخلوها، وانبثوا فى شوارعها ومتاجرها ومنازلها ومساجدها وكنائسها، يقتلون وينهبون ويخربون، وينقلون كل مسروقاتهم إلى سفنهم.

وهكذا أمضى القبارصة فى الإسكندرية أربعة أيام، حتى إذا أحسوا قرب وصول النجدات الحربية من القاهرة فروا مسرعين إلى سفنهم التى أثقلت بالمنهوبات حتى اضطروا إلى إلقاء بعضها فى البحر، خوفًا على سفنهم من الغرق، وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالى الإسكندرية، منهم - كما يقول النويرى المؤرخ السكندرى المعاصر -:

«المسلم والمسلمة، واليهودى واليهودية، والنصرانى والنصرانية، وأخذوا من الأموال ذهبًا وحريرًا وبهارًا وغير ذلك ما لا يحد ولا يوصف».

وقد يبدو غريبًا أن تسقط المدينة فى أيدى الأعداء بهذه السرعة وهذه السهولة، رغم وما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة، ومع أن خزائن أسلحتها كانت عامرة بالعدة والعتاد، ولكننا نجد التفسير فى ذلك الاضطراب الذى كان يسود مصر فى ذلك الحين، فقد كان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره، هو السلطان الملك الأشرف شعبان، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى، وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين، وزاد الطين بلة أن والى الإسكندرية الأصيل، وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام كان متغيبًا عن المدينة يؤدى فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر اقل دربة وأصغر مرتبة، هو الأمير جنغرا.

نجح بطرس الأول لوزنيان فى تخريب الإسكندرية ونهبها،ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على مصر أو البقاء فى الإسكندرية، بل أسرع بالفرار حين شاهد طلائع المدد القادم من القاهرة، وصدق عليه قول النويرى السكندرى حين وصفه بأنه جاء إلى المدينة لصا وخرج منها لصًا.

وقد شعر السلطان الملك الأشرف شعبان منذ تلك الواقعة أن الإسكندرية قد غدت محط أنظار الفرنج، ومنبت الخطر الذى قد يهدد الدولة كلها إذا أزمع الأعداء العودة إليها، فزادت عنايته بها، ورفع مكانتها، وزاد فى قدر حاكمها، فبعد أن كانت الإسكندرية ولاية يليها وال من أمراء الطبلخانة، جعلها الأشرف شعبان فى نفس السنة التى غزاها فيها القبارصة (أى ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م). وإنما بعد رحليهم عنها - نيابة يحكمها نائب عن السلطان من الأمراء المقدمين.

والمقصود بالنائب فى مصطلح العصر المملوكى أنه ينوب عن السلطان فى حكم المدينة. لهذا أصبح لنائب الإسكندرية منذ هذا التعديل ما للسلطان فى القاهرة، فله دار النيابة - وهى مقر حكمه - وتحت يده حاجب أمير عشرة، وحاجب جندى، ووال للمدينة، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر، وموقّع يسمى كاتب السر، وناظر يشرف على الأموال الديوانية، معه مستوف، وتحت يده كتاب وشهود.

وأصبح للمدينة أيضًا محتّسب خاص يشرف على شئونها الاقتصادية والاجتماعية، وتعدد قضاتها - شأنها فى ذلك شأن القاهرة - فأصبح بها ثلاثة قضاة - اثنان مالكيان والثالث حنفى.

وجعل فى دار النيابة هذه كرسى للسلطنة، كما رسم بأن يكون للنائب مواكب رسمية خاصة تسير فى طريق محدد شأن المواكب السلطانية بالقاهرة.

فكان موكب نائب الإسكندرية يبدأ من دار النيابة، يتقدمه الشبابة السلطانية، ويتبعه الأمراء والجند، فيخرج من باب البحر، ويسير خارج المدينة قدر ساعة، ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة[1]. فإذا كان الموكب من المواكب التى يتلوها السماط وضع كرسى السلطنة صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر، ووضع عليه سيف بنمجاة سلطانية، ومد السماط تحته، وجلس النائبُ فى ناحية من الإيوان بجوار شباك يطل على الميناء، وجلس رجال الدولة بترتيب خاص، شأنهم فى ذلك شأن رجال الدولة فى مجلس السلطان بالقلعة، فجلس القاضى المالكى عن يمين النائب، والقاضى الحنفى عن يساره، والناظر تحته، والموقع أو كاتب السربين يديه، ورؤوس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص والشكاوى فيقرؤها الموقع على النائب، ويفصل هذا فيها بحضرة القضاة، ثم ينصرف المجلس، وبانصرافه ينتهى الموكب.

---

(١) كانت دار النيابة هذه بدار السلطان، وهى دار قديمة كانت موجودة منذ العصر البيزنطى، ثم جددت أكثر من مرة فى العصر الإسلامى، ويبدو أنها كانت مخصصة لنزول السلطان إذا أتى لزيارة الإسكندرية، ثم كانت تفتح للنائب فى المناسبات الرسمية، كما كان ينزل بها ويسكنها بعض النواب، وممن سكنها منهم الأمير خليل بن شاهين الظاهرى وقد وصفها وصفًا رائعًا فى كتابه «زبدة كشف الممالك» قال: «وبالثغر مكان يعرف بدار السلطان، وبها دور متسعة، وهى عجيبة من عجائب الدنيا، وبها آدر عظيمة، وبها تخت الملك، وقيل إنه لم تعمر دار وسعها، أنشأها فى الأصل المقوقس، ثم بعده جوهر الموتفكى (الصقلى)، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب، ثم بعده الملك ناصر بن برقوق، وبها من الأعمدة الرخام الملونة، والقياع المفروشة بالرخام الملون، والأماكن المزخرفة، والبساتين الحسنة ما يطول شرح وصفه، وهى مشرفة على البحر المحيط لا يسكنها إلا السلاطين خاصة، ولم تزل إلى الآن (ق ٩ هـ) مقفولة، وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف على السكنى فيها حين كنت نائب السلطنة الشريفة بالثغر، فأمر لى بذلك، ولم يكن سبق لأحد ذلك من نواب الثغر».

وهذا الوصف للموكب - وإن كان يحدد موقع دار النيابة تحديدًا دقيقًا له أهمية خاصة عند التعرف على طبوغرافية المدينة في هذا العصر المملوكي - فهو ينص كذلك على أن الموكب كان يسير بعد خروجه من باب البحر خارج المدينة قدر ساعة، أى أن هذه الرقبة التى تصل المدينة بجزيرة فاروس كانت حتى أواخر القرن الثامن الهجرى لا تزال تعتبر من أرباض المدينة، وأنها لم تكن قد سكنت بعد، وستفيدنا هذه الحقيقة عند تتبع طبوغرافية المدينة وما طرأ عليها في العصر العثمانى، فإن العمران سيتحول فى هذا العصر عن المدينة، ويمتد إلى هذه الرقبة ويستقر بها، بحيث تصبح هى وحدها المدينة كل المدينة.

أضفى هذا التغيير على المدينة صفة جديدة، إذ اعترف بها عاصمة ثانية للدولة، بها كرسى للسلطنة، ويحكمها أمير كبير هو نائب عن السلطان بها، ويقيم العدل بها قضاة مستقلون ويشرف، على أسواقها واقتصادياتها محتسب خاص، وزيد فى عدد حاميتها، وشحنت بالعدة والسلاح، وزودت بأحدث معدات الدفاع، كالمدافع - وكانت حديثة الاختراع - فقد روى القلقشندى أنه رأى بنفسه فى الإسكندرية:

«فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام مدفعًا قد صنع من نحاس ورصاص، وقيد بأطراف الحديد، رمى عنه فى الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة، فوقعت فى بحر السلسلة خارج باب البحر وهى مسافة بعيدة».

وفى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م - ١٣٦٩م) كان السلطان الملك الأشرف شعبان قد شارف البلوغ، وقارب السادسة عشرة من عمره، واستطاع أن يدبر شئون الحكم بنفسه، فرأى أن يذهب إلى الإسكندرية ليشرف على حصونها ومنشآتها وأسوارها ووسائل الدفاع عنها، وقد شاهد هذه الزيارة المؤرخ السكندرى محمد بن القاسم النويرى، ووصفها وصفا مسهبًا.

ولهذا الوصف قيمة خاصة، لأنه يتضمن بيانات نادرة عن تاريخ المدينة وطبوغرافيتها فى ذلك الوقت، وبمراجعته نستطيع أن نرسم مصورا تفصيليا للمدينة وأسوارها وأبوابها، والكثير من أحيائها ومعالمها وشوارعها فى ذلك العصر.

فهو يذكر أن السلطان دخل المدينة من باب رشيد، ثم يعدد الأحياء التى مر بها إلى أن وصل إلى باب البحر المقابل للميناء الشرقى، فيقول إنه سار - بعد دخوله من باب رشيد - فيما كان يسمى وقتذاك بالمحجة العظمى - وهو ما نرجح أن يكون شارع فؤاد الأول الحالى أو الطريق الكانوبى القديم - ثم مر بمسجد أبى الأشهب، وعطف عطفته فمر على دار

ابن الجباب، ومنها إلى جفار القصارين، إلى الصادر، إلى أن خرج من بـاب البحـر، فنـثر عليـه مقابل دار العدل ودار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس.

هذه أحياء ومعالم قد زالت ولم يعـد لهـا أثـر فـى الإسـكندرية الحديثـة، وإنمـا بقيـت لهـا دلالاتها الهامة عند كتابة تاريخ المدينة الاقتصادى.

فالنويرى يذكر أن الطريق إلى باب البحر كـان فـى نهايتـه وبـالقرب مـن هـذا البـاب جفـار القصارين، وهى ساحة يباشر فيها القصارون تقصير الثياب، أى دقـها وضربـها، وهـى مرحلـة من مراحل صناعة النسيج فى تلك العصور.

وبالقرب من ذلك الجفار معلمان اقتصاديان هامان أحدهما: له أهمية تجارية، وهـو الصـادر، أى مخازن التجارة الصادرة إلى الخارج تحملها سفن الفرنجة التى كانت تفد إلى الميـناء الشـرقى وحسب، ولا تجرؤ على الدخول فى الميناء الغربى الخاص بسفن المسلمين.

وثانيهما له أهمية صناعية، وهو دار الطراز، ودار الطراز مصطلح كان يطلق فى تلك العصـور على مصنع النسيج، وكتب التاريخ تذكر أن مدن مصر الشمالية: الإسكندرية، ودمياط، وشـطا، وتنيس، ودبيق، وتونة، وبورة.. الخ. كانت مراكز هامة لهذه الصناعة، كما تذكر أنه كان يقوم بها دور طراز خاصة، وبها تنسج ملابس السلطان وخاصته وحريمه والخلع التى يخلعـها علـى رجال الدولة فى المناسبات الخاصة؛ ودور طراز عامة وبها تنسج الأقمشة الشعبية.

ويتضح من كلام المؤرخين كذلك أن المدن المصرية الأخرى كانت قد فقدت أهميتها فى العصر المملوكى كمراكز لصناعة النسيج، وبقيت الإسكندرية ولها الصدارة فـى هـذه الصناعـة، حتـى غدت لمنسوجاتها شهرة خاصة فى الأسواق، فابن الحاج يذكر فـى كتابـه «المدخـل» أن بعـض التجار.

«كـانوا يشـترون القمـاش الخـام الأبيـض مـن بـلاد مختلفـة ممـا يشبه قمـاش الإسكندرية ثم يقصرونه بالإسكندرية، ويبيعونه على أنه اسـكندراني، وهـذا غـش لأن المشترى لو علم أنه من الإسكندرية لم يـرض بـه، ولم يعـط مـن الثمـن إلا دون ما أعطاه أولاً».

وقد ذكر النويرى فى وصفه أن السلطان الأشرف شعبان قـد زار دار الطـراز، «وأتـى مواضـع أنوالها واستعمالاتـها، فرأى كل صانع ينسج على منواله (نوله) مـن أصنـاف الأقمشـة المنمقـة، والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان، المختلفـة الألـوان.. وكيـف تصنـع الطيـور المنسـوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر».

ويفهم من وصف النويرى أيضًا أن الإسكندرية كان يحيط بها سوران: أحدهما داخلى مما يلى البلد، وهو السور الرئيسى، وثانيهما خارجى يشرف على ما يحيط بالمدينة، وكان لكل باب من أبواب المدينة ثلاثة أبواب متينة مصفحة بالحديد، يؤكد هذا خليل بن شاهين الظاهرى نائب الإسكندرية فى القرن التاسع الهجرى، فقد قال عند وصفه للمدينة فى كتابه «زبدة كشف الممالك»: «وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه، يشتمل على سورين محكمين بها عدة أبواب، يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة، وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل باب منها ثلاثة أبواب من حديد»، ويؤكده ذلك النويرى السكندرى فهو يقول عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شعبان عند دخوله المدينة:

«إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد.. ثم سار وخرج من باب البحر الثانى، ثم الثالث، فشاهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج».

وكان للسور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع مشحونة بالعدد والأسلحة والأتراس، وبأعلاها المناجيق والمكاحل، وعل كل برج أعلام وطبلخانات وأبواق وحرسية.

وكان للسور الخارجى أبواب عدة، أهمها:

باب رشيد فى شرقى المدينة، وهو المؤدى إلى الطريق المنتهية إلى مدينة رشيد.

وباب البحر، وكان يواجه الميناء الشرقى.

والباب الأخضر (أو باب القرافة) فى غربيها، وكان لا يفتح إلا يوم الجمعة ليخرج الناس منه لزيارة القرافة.

وباب سدرة (أو باب العمود) فى جنوبها.

وكانت العادة القديمة إذا زار سلطان من سلاطين المماليك المدينة أن تفك أبوابها وتلقى على الأرض إلى أن يرحل فيعاد تركيبها.

وذكر النويرى أن الأشرف شعبان لما خرج من باب البحر الخارجى شاهد الخندق الجديد الذى أنشأه نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام بعد وقعة القبارصة، «ولم يكن فى ذلك المكان خندق»، كما ذكر أنه كان هناك خندق آخر يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر.

وفى وصف النويرى تحديد لبعض معالم المدينة الهامة الأخرى، فهو يذكر أن دار صناعة السفن كانت تقوم بالقرب من دار الطراز، وأنه كان بالمدينة داران للصناعة؛ إحداهما بالميناء الشرقى، والثانية بالميناء الغربى.

كما كان بها قصر للسلاح بالقرب من الباب الأخضر، وهو قصر ذو قاعات كثيرة مملوءة بالأسلحة والعدة والعتاد، أنشأ كلامنها سلطان من سلاطين المماليك، وسماها باسمه، وقد رسم السلطان الملك الأشرف شعبان – فى زيارته هذه – أن تنشأ بالقصر قاعة جديدة تحمل اسمه، وكان لهذا القصر مسجد ملحق به.

وبالقرب من الباب الأخضر أيضًا يقوم ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى، وبجواره مسجد تلميذه القاضى سند بن عنان، وعلى مسافة منه الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة فى ذلك العصر، وبجواره كانت تقوم دار السلطان.

هذه هى معالم المدينة الهامة التى أشار إليها النويرى فى وصفه، غير أننا نلاحظ أنه أهمل الإشارة إلى مؤسسة حكومية هامة تعنى الذين يريدون التاريخ للإسكندرية من الناحية الاقتصادية، ونقصد بهذه المؤسسة دار الضرب السكندرية، فإن المتواتر فى الكتب التاريخية أنه كان بمصر داران للضرب، إحداهما فى القاهرة، والثانية فى الإسكندرية، ولسنا نعرف على وجه التحديد فى أى أحياء المدينة كانت تقوم هذه الدار، وأغلب الظن أنها كانت تقوم فى الحى الذى كان يضم المنشآت الحكومية السالف ذكرها: دار السلطان، وقصر السلاح.

ولسنا نعرف على وجه التحديد متى أنشئت هذه الدار بالإسكندرية، وإنما نستطيع أن نقول – على وجه التقريب – أنها أنشئت فى العصر الفاطمى، فإن أقدم نص يشير إلى وجودها هو ما ذكره ابن مماتى – وهو مؤرخ عاصر نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية – فقد قال فى كتابه «قوانين الدواوين» عند كلامه عن دور الضرب: «المستمر الآن فى الديار المصرية داران: دار بالقاهرة المحروسة، ودار بالإسكندرية – حماها الله –»

وقد أشار القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» إلى وجود هذه الدار بالإسكندرية فى عهد الأشرف شعبان، فقد ذكر أن نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام قد ضرب بالإسكندرية بعد السبعين والسبعمائة دنانير زنة كل دينار منها مثقال، على أحد الوجهين منه: «محمد رسول الله»، وعلى الوجه الآخر: «ضرب بالإسكندرية فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين، عز نصره».

وليس من المعروف حتام استمرت هذه الدار تؤدى عملها، وإنما نستطيع أن نقرر أنها ظلت موجودة حتى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م) فإن ابن الحاج – وهو من كتاب هذا القرن – يقرر أن السكة المضروبة بالإسكندرية كانت تختلف فى قيمتها عن السكة المضروبة فى القاهرة فهو يقول: «وليست دراهم الإسكندرية كدراهم الديار المصرية»، كما يذكر المقريزى فى كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة». أن الظاهر برقوق قد «اتخذ بالإسكندرية دار ضرب لعمل

الفلوس»، وهذا النص قد يعنى أن الدار القديمة قد تلاشى أمرها فى عهد برقوق، فأنشأ فى عهده دارًا جديدة غيرها، وقد يعنى أن الدار القديمة كانت تضرب الدنانير والدراهم وحسب، فرأى أن ينشئ إلى جانبها دارا جديدة لضرب الفلوس.

هذه هى الإسكندرية حتى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م)، غير أننا نلاحظ أن غزوة القبارصة كانت بالغة الأثر فى تاريخ المدينة، فقد قضت على الكثيرين من سكانها قتلاً وأسرا، كما خربت الكثير من معالمها، أما أهلوها الذين فروا منها أثناء الوقعة فإنهم لم يعودوا إليها جميعًا، فقل سكانها واتضعت أحوالها، يقرر هذه الحقيقة المقريزى بقوله:

«فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم».

الفصل الخامس

شفق الغـروب

فى آواخر العصر المملوكى

فإذا كان القرن التاسع الهجرى فقد سارت الإسكندرية نحو التأخر والخراب خطوات حثيثة، وذلك أن هذا القرن لم يشهد من السلاطين العظماء المصلحين إلا عددًا قليلا جدًا، لهذا نلاحظ أن عناية هؤلاء السلاطين بالإسكندرية كانت قليلة، فلم يزرها أو يلحظها بعنايته إلا ثلاثة منهم.

أولهم الناصر فرج بن برقوق، وقد زارها فى سنة ٨١٤هـ (١٤١١م) فأوكب بها موكبًا حافلاً، وحملت القبة والطير على رأسه، ومما وقع له أنه لما شق مدينة الإسكندرية وقف له بعض التجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض، فلما قرأ تلك القصة رسم بأبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة، وكتب لهم بذلك مرسومًا شريفًا، فارتفعت الأصوات بالدعاء.

وفى سنة ٨٢٦هـ (١٤٢٢) عنى الأشراف برسباى بإعادة حفر الخليج، وكانت قد طمرته الرمال وتعطلت السفن عن السير فيه.

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥م)، فى سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) عنى السلطان الملك الأشرف قايتباى بالإسكندرية عناية خاصة، فزارها فى تلك السنة، واحتفلت المدينة بمقدمه احتفالاً عظيمًا، وقد وصف هذه الزيارة المؤرخ المصرى ابن أياس، فذكر أن السلطان:

«شق المدينة فى الموكب الحافل، وكان له يوم مشهود، ثم أن بعض تجار الفرنج نثر على رأسه ألف بندقى، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس، حتى أدركه الأمير تمراز وبيده عصا، فضرب الناس حتى خلص السلطان، ومشى، واستمر فى ذلك حتى خرج من باب البحر الذى هناك فنزل، بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح».

وأهم ما ورد فى وصف ابن اياس أن المنار القديم كان قد ناله ما نال المدينة نفسها من إهمال، فتهدمت أركانه وتشعث بنيانه تمامًا، فأمر الأشراف قايتباى - فى مقدمته هذه - أن

يبنى مكانه برج جديد هو ما عرف فيما بعد ببرج قايتباى، ثم طابية قايتباى، التى لا تزال باقية حتى اليوم، قال ابن إياس إتمامًا لوصفه:

«ثم أنه توجه نحو المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجًا، فبنى به برجًا عظيما وهو الموجود الآن..».

وبعد سنتين من هذه الزيارة تم بناء هذا البرج، فرحل قايتباى إلى الإسكندرية لمشاهدته ومشاهدة برج آخر بناه فى رشيد، وقد روى أخبار هذه الزيارة أيضًا ابن إياس، قال:

«وكلن سفر السلطان إلى الإسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هنالك، وقد انتهى العمل فيه، فتوجه إليه ليرى هيئته، ثم توجه إلى رشيد، وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم، فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجمل الآثار الحسنة».

ثم استطرد بعد هذا فوصف هذا البرج فى شىء من التفصيل، قال:

«وقيل إن صفة بنيان هذا البرج [1] أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج، وأنشأ بهذا البرج مقعدًا مطلا على البحر ينظر منه مسيرة يوم إلى المراكب وهى داخلة إلى الميناء».

«وجعل بهذا البرج جامعًا بخطبة، وطاحونًا، وفرنًا، وحواصل شحنها بالسلاح، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلاً ونهارًا لئلاً تطرق الأفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائمًا، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر، وجعل شادًا من خواصه وهو باش عليهم.. وقيل إن السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار، وأوقف عليه الأقاوف الجليلة، وجاء من أحسن الآثار».

---

(١) برج أو طابية قايتباى لا تزال قائمة فى مكانها حتى اليوم، وقد أصبحت منذ إنشائها معلمًا من أهم المعالم المميزة للمدينة، وإن كانت قد نالها شىء من التغيير، وخاصة زوال مسجدها الذى كان يبدو واضحًا بمئذنته العالية فى المصورات التى رسمت للمدينة فى القرون ١٦ و١٧ و١٨ ، وقد بلغت نفقات إنشاء هذا البرج نحو التسعين ألف جنيه، وكان يوجد بفنائه الداخلى مساكن للجند، كما كان به مسجد وبالمسجد ضريح، يزعم العامة بأنه ضريح قايتباى، وهذا خطأ واضح لأن قايتباى مدفون فى مسجده المعروف بصحراء قايتباى خارج القاهرة، وقد عنى بهذا البرج السلطان الغورى عندما أحس قرب الخطر العثمانى، فملأها بالسلاح والعتاد، وأصدر فى عام ٩٠٧هـ (١٥٠١م) مرسومًا ينص على عدم السماح بإخراج سلاح ولا مكاحل ولا بارود منها، وأن من يخالف ذلك يشنق على بابها، ولا يزال نص هذا المرسوم مثبتا حتى الآن فوق المدخل الثانى لهذه القلعة.

ورغم هذه العناية التى بذلها قايتباى لتحصين المدينة، ورغم هذه الأموال التى صرفها لبناء هذا البرج، فإنه لم يلحظ هو ومن تبعه من السلاطين شئون المدينة العمرانية والاقتصادية بعناية مماثلة، فظلت أحوالها فى تقهقر وأمورها فى تأخر وتدهور.

وفى صحوة الموت، والدولة المملوكية فى مصر والشام توشك أن تنهار، أدرك السلطان الغورى ما للإسكندرية من خطورة وأهمية فى الدفاع عن مصر، وخاصة أن خطرًا جديدًا كان يلوح فى الأفق وقتذاك، وهو خطر الدولة الإسلامية الفتية الناشئة، دولة الأتراك العثمانيين.

وبدأ الغورى فى أوائل سنة ٩١٦هـ (١٥١٠) يفكر فى الذهاب إلى الإسكندرية للإشراف على أبراجها وحصونها وأسوارها، وإصلاح ما فسد منها، غير أن الوقت كان وقت فيضان النيل، والسفر برًا إلى الإسكندرية عسير، فسافر بالنيابة عنه أحد أمرائه، ولبث الغورى ينتظر حتى ينتهى موسم الفيضان وهو لا ينى عن التفكير فى الإعداد لهذه الرحلة، ومما اتخذه فى هذا الشأن أن ذهب فى تاسع عشر شعبان سنة ٩١٦هـ إلى المطرية.

«وكان المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجبس فى الأرض صفة مدينة ثغر الإسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها وهيئة سورها والمنار التى كان بها، وقدر عرضها وطولها، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها وتفرج عليها، ثم عاد إلى القلعة من يومه».

وهذا نص نادر وهام لأنه – إلى جانب ما يمدنا به من معلومات عن ثغر الإسكندرية – يبين فى وضوح كيف كان يعمل المهندسون المصريون فى العصر الإسلامى، وأنهم كانوا يقومون بإعداد الرسوم والخرائط والتصميمات لمشروعاتهم قبل تنفيذها.

وفى ذى القعدة من نفس السنة رحل الغورى إلى الاسكندرية، فكشف أحوالها وحصونها ولم يلبث بها ألا أيامًا قليلة، ثم عاد إلى القاهرة.

وفى سنة ٩٢٠هـ (يناير ١٥١٥م) زار الغورى الإسكندرية للمرة الثانية، فدخلها فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، وقد وصف هذه الزيارة فى تفصيل المؤرخ المعاصر ابن إياس، ووصفه ينطق فى أكثر من مكان بأن المدينة كانت قد وصلت فى تأخرها وخرابها إلى الحضيض، فهو يقول:

«فلما شق (أى الغورى) المدينة زينت له زينة فشروية، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ فى غاية الترحل والخراب».

ويقول فى موضع آخر:

«ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار، لا من المسلمين ولا من الفرنج، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب ووجود القباض، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة، وآل أمرها إلى الخراب، حتى قيل: «طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة، .والبقية خراب لم تفتح، وكانت الإسكندرية من أجل مدائن الدنيا».

ولم يمكث الغورى بالإسكندرية فى هذه المرة غير يومين وليلتين، ولم يفعل فى خلالها غير أن:

«توجه إلى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى، فطلع فى البرج هو والأمراء، وأرموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التى بثغر الإسكندرية، وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل».

وكانت الأمور تتعقد فى سرعة غريبة بين مصر والدولة العثمانية، والعلاقات بينهما تسير من سيء إلى أسوأ، ففى شعبان ٩٢١هـ (١٥١٥م) عاد إلى مصر رسول كان قد أرسله الغورى إلى ملك التتار، وأخبر بأنه لما مر ببلاد ابن عثمان.

«أرسل قبض عليه، وأخذ ما كلن معه من الهدية التى كان أرسلها السلطان إلى ملك التتار، وحصل له من ابن عثمان غاية البهدلة، وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان».

وأخبر هذا الرسول أيضًا عن ابن عثمان:

«أمور شنيعة كما قالها فى حق السلطان وعسكر مصر، وأنه جهز مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب فى البحر، تجيء ثغر الإسكندرية ودمياط، وفرق من عسكره تجيء على البلاد الحلبية».

وفزع السلطان الغورى لهذه الأخبار فزعًا شديدًا، ورحل إلى الإسكندرية فى زيارة سريعة أخيرة فى الثانى من شهر رمضان ٩٢١هـ (أكتوبر ١٥١٥م) فتفقد أحوال أبراج الإسكندرية ورشيد، «وأشيع أنه شرع فى بناء سور برشيد على شاطئ البحر الملح، فأرسل عدة بنائين وحجارين لسبب ذلك».

وكانت هذه آخر زيارة زارها سلطان مملوكى لمدينة الاسكندرية، ووافى الخطر بأسرع مما كان يتوقع الغورى، وأقبلت جيوش العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول فى سنة ١٥١٧م، فاستولت على الشام ثم مصر.

الباب الخامس

الإسكندرية فى العصر الحديث

الفصل الأول: فى العصر العثمانى.

الفصل الثانى: فى سنوات الحملة الفرنسية الثلاث.

الفصل الأول

١ - فى العصر العثمانى

هذه الصورة الشوهاء التى رسمها ابن إياس لمدينة الإسكندرية فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر - أى قبيل الفتح العثمانى لمصر مباشر - تدل على مبلغ ما وصلت إليه المدينة من تأخر واضمحلال، فلما فقدت مصر استقلالها، وأصبحت ولاية تابعة للدولة العثمانية أصاب الإسكندرية ما أصاب مصر جميعها من إهمال، فانكمشت عن ذى قبل، ونعق بوم الخراب فى نواحيها، وأقفرت شوارعها، وخربت دورها، وأصبح العمران مقصورًا فيها على هذه الرقبة الممتدة بين الشاطئ وجزيرة فاروس والمطلة على الميناءين، فقد كان رصيف الهيبتاستاديوم عندما تحطم فى العصر العربى قد تراكمت عليه الرواسب شيئًا فشيئًا إلى أن اتسعت رقعته، فأقيمت عليه المبانى.

هذه الرقعة كانت تعتبر حتى أواخر القرن الثامن الهجرى من أرباض المدينة - كما سبق أن ذكرنا - ، ولكنها فى العصر العثمانى أصبحت هى المدينة ذاتها، ولهذا تسميها المصورات التى رسمت للمدينة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمدينة التركية، فى حين تسمى المدينة الأصلية المحاطة بالأسوار المدينة العربية، وهذه المدينة الأصلية أصبحت فى العصر العثمانى مهجورة ذات أطلال وخرائب وتنتثر فى نواحيها بعض الحقول والبساتين، أما الأسوار وأبراجها فقد نالت منها يد البلى، وأصبحت غير ذات غناء.

وعملت عوامل أخرى على تأخر المدينة واضمحلالها. فقد صحب الفتح العثمانى كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة العالمية إليه. ففقدت المدينة بذلك أهميتها التجارية، وانقطعت الصلة بينها وبين أوربا والعالم الخارجى وخاصة بعد أن اضمحل شأن معظم الدول التى كانت تتجر مع مصر، وأهمها جمهورية البندقية والجمهوريات الإيطالية الأخرى، وضعفت كذلك صلة الإسكندرية بموانى الشام والدولة العثمانية، فقد حلت مكانها دمياط ورشيد لأنهما أقرب منها إلى هذه الموانئ.

حقيقة لقد كان يحكم الإسكندرية فى هذا العصر قبودان يعين بمرسوم من السلطان، كما انتقلت إليها بعض قنصليات الدول الأوربية، إلا أن هذا وذاك لم يستطع أن يبعث فيها دم الحياة من جديد، فظلت تسير نحو التأخر والاضمحلال بخطى حثيثة، وقل سكانها - تبعًا

لذلك - حتى أصبحت - كما يصورها الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر - قرية صغيرة تقيم فيها حامية ضعيفة قليل عديدها لا تستطيع أن ترد عنها أى معتد ذى قوة.

هكذا تصورها المصورات فى ذلك العصر، وبها بعض المبانى (وأهمها بناء الجمرك وبعض دور القنصليات) والمساجد التى تقوم على رقبة الهبتستاديوم، وتشرف على الميناءين، ويبرز من أطرافها بعض معالم المدينة القديمة التى استطاعت أن تقاوم عوادى الزمن، وأهمها: قلعة قايتباى التى قامت على أنقاض المنارة القديمة فى الطرف الشرقى من جزيرة فاروس، يقابلها برج آخر صغير فى نهاية رأس لوكياس القديم، ومسلتا كليوباترة تطلان على الميناء الشرقية، وعامود السوارى يشرف على المدينة من الجنوب.

أما المدينة نفسها فتبدو خلاء أو كالخلاء، ينبت فى نواحيها بعض مآذن المساجد القديمة، ويبرز فى طرفيها نهدان من الأرض، أحدهما فى شرقيها وهو المعروف بكوم الديماس أو كوم الدكة، والثانى فى غربيها وهو المعروف بكوم الناضورة، ويحيط بهذا الخلاء السور القديم وقد تشعث بنيانه وتهدمت أبراجه وحصونه.

ولم يبن فى هذا العصر العثمانى من المنشآت الجديدة إلا النزر اليسير، وخاصة بعض المساجد الصغيرة، نذكر منها:

مسجد الحاج إبراهيم تربانة الذى أنشئ فى سنة ١٠٩٧هـ (١٨٦٥م) [(١)].

ومسجد عبد الباقى جوربجى الذى أنشئ فى سنة ١١٧١هـ (١٧٥٨م) [(٢)].

---

(١) حسن عبد الوهاب، المساجد الأثرية، ج ١ ، ص ٣٢٨.

(٢) نفس المرجع، ص ٣٢٧ - ٣٣٠.

الفصل الثانى

٢ - فى سنوات الحملة الفرنسية الثلاث

هذه هى الإسكندرية وقت أن وصلها الفرنسيون فى سنة ١٧٩٨، فلا عجب إذن أن رأيناهم يستولون عليها ويدخلونها بجيوشهم فى يسر وسهولة فقد كانت طابية قايتباى كما وصفها «المسيو سافارى [1] Savary »:

«لا تقوى على صد بارجة واحدة».

وأكد هذه الحقيقة «المسيو فولنى Volney [2]» حين قال إن هذه الطابية لا تصلح - رغم أبراجها العالية - للدفاع عن المدينة، «إذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للضرب، وليس فيها رماة يحسنون الرمى بالقنابل، وحاميتها المؤلفة من خمسمائة من الانكشارية هبط عددهم إلى النصف».

ولا يختلف عن هذا الوصف كثيرًا ما كتبه «مسيو مور Mure » - قنصل فرنسا فى مصر - فى تقريره الذى قدمه لحكومته فى سنة ١٧٨٣، يرغبها فى المجىء إلى مصر والاستيلاء عليها. فقد قال فيه:

«إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا فى سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثمانى، أما قلعة المنارة فهى فى ظاهرها فخمة، ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدافع الباقية بها لا تصلح للضرب، ولا تستعمل إلا فى أيام الأعياد» [3].

ففى أواخر القرن الثامن عشر لم يكن باقيًا من الإسكندرية القديمة العظيمة سوى الأطلال، وكانت قد تحولت إلى مدينة صغيرة تقع شمالى المدينة القديمة؛ وتنحصر فى شبه الجزيرة التى بين الميناءين الشرقية والغربية - كما تحددها المصورات التى رسمها علماء الحملة لها - ؛ وكان «حدود هذا العمران ينتهى شمالاً فى مقابلة شبه جزيرة رأس التين، فكانت جميع

(١) زار الإسكندرية سنة ١٧٧٧م.

(٢) زار الإسكندرية سنة ١٧٨٣م - أى قبل الحملة بخمس عشرة سنة.

(٣) نظر: عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية، ج ١، ص ١٦٨.

الجهات الواقعة بين البحر شمالاً وشارع أبى وردة إلى جامع أبى العباس بعضها مدافن، وبعضها نقع، ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت الصيادين بالجهة المعروفة بالسيالة، وكان حد المدينة من الجهة القبلية الحارة المعروفة الآن بحارة المغاربة قريبًا من ميدان محمد على»[1].

أما المدينة القديمة التى كانت قد أصبحت خلاء أو شبه خلاء، فكان لا يزال يحدد معالمها السور القديم، وكان طول هذا السور - كما قاسه علماء الحملة - ٧٨٩٣ مترًا، وكان يتخلله مائة برج لا ترجع جميعًا إلى عهد واحد، بل هى خلاصة جهود ملوك مصر وسلاطينها العظام فى العصر العربى الطويل، ولم يكن هذا السور وقت وصول الحملة يحيط إلا بفضاء عظيم من الخرائب «قد خلا من المساكن، فيسير فيه الإنسان عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الأطلال الدارسة، ولم يبق به إلا صهاريج المياه، وأربعة كفور يسكنها خدام البساتين التى بداخل السور، وحراس القلاع والأبراج، وكان معظم هذه الأبراج متخربـاً، وفى السور ثغرات وفتحات سببها الإهمال وسوء الإدارة [2].

وقد عنى الفرنسيون بالمدينة بعد استيلائهم عليها عناية خاصة، فرمموا أسوارها وأصلحوا حصون هذه الأسوار وأبراجها، وعنوا بتحصين قلاع ساحل القديمة - وخاصة قلعة قايتباى وأبى قير - ونصبوا فيها مدافعهم الجديدة، وأنشئوا فى قلب المدينة القديمة قلعتين جديدتين على ذلكما النهدين المرتفعين فى شرقيها وغربيها، القلعة الأولى على كوم الدكة، وسميت «قلعة كرتيان» تخليدا لاسم بانيها «الكونيل كرتيان»، والثانية على كوم الناضورة وسميت «قلعة كافريللى» تخليدا لاسم المهندس الفرنسى المشهور «الجنرال كافريللى»، كما بنوا قلعة ثالثة فى جزيرة العجمى مكان برج قديم متهدم كان قائما بها.

وقد قام علماء الحملة بدراسة المدينة كما وجدوها دراسة علمية مفيدة، ورسموا لها مصورات جغرافية هى أول مصورات علمية دقيقة رسمت للمدينة ويمكن الاعتماد عليها عند دراسة طبوغرافية المدينة، ثم كتبوا عنها بحوثا أربعة مفيدة نشرت فيما بعد فى كتاب الحملة القيم: وصف مصر .Description de L'Egypte

كتب البحث الأول عن طبوغرافية المدينة القديمة أحد مهندسى الحملة وهو «سان جنيس Saint Genis »، وقد اعتمد فيه كاتبه على المشاهدة والإفادة من المراجع القديمة، ويعيبه - رغم قيمته - أنه لم يعتمد على الحفر والتنقيب - كما فعل الفلكى باشا فيما بعد - ، وقد نشر هذا البحث فى المجلد الخامس من وصف مصر [3]».

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٦٥.

(٢) نفس المرجع، ص ١٦٦.

(٣) Saint-Genis : *Description des Antiquites d'Alexandrie et des ses Enuirons. Dans la "Description de l'Egypte" t. V. P. p. 181-507; Explication des Planches, X, P.p. 509 ss*

وكتب البحث الثانى عن وصف الإسكندرية «المسيو جراتيان بوبير Gration Le Pere »، وقد اعتمد فيه – كزميله – على مشاهداته وعلى ما ذكره كتاب العرب والفرنج عن المدينة فى كتبهم ورحلاتهم، وقد نشر هذا البحث فى المجلد الثانى من «وصف مصر» (١).

وهناك بحثان آخران أقل أهمية من البحثين السابقين، كتبهما مهندسان من مهندسى الحملة هما، «نورى Norry » و«مارتان Martin »، وقد نشرا فى المجلد الخامس من نفس الكتاب(٢).

ورغم هذه العناية الفرنسية بتحصين المدينة ودراستها، فإنها لم تتقدم خطوة واحدة فى عهدهم، بل لعلها تأخرت خطوات، بدليل أن سكانها قد قل عددهم فى نهاية عهد الحملة عما كان عليه فى أول هذا العهد (٣) وكان ذلك نتيجة طبيعية للحوادث التى شهدتها المدينة فى سنوات الحملة الثلاث، فقد كانت مسرحًا للاضطهادات والمصادرات وفرض الضرائب، كما كانت مسرحًا للصراع العنيف بين قوى الدول الثلاث: فرنسا وإنجلترا وتركيا، وقد شهدت أراضيها وسواحلها معركتين من أهم المعارك، وهما: معركة أبى قير البحرية، ومعركة أبى قير البرية، ثم انتهى الأمر بمحاصرة القوى داخل أسوار المدينة إلى أن خضعت وسلمت، وكان من نتائج هذا الحصار أن خربت القلاع التى بنوها، وتشعثت الأبراج والأسوار التى رمموها، وبذلك عادت المدينة إلى ما كانت عليه قبل قدوم الفرنسيين، بل لعلها عادت إلى أسوأ مما كانت عليه.

ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى بدأ فى مصر عصر نهضة وإفاقة شمل فيما شمل مدينة الاسكندرية، فبدأت تنفض عنها ثوب النسيان، وتخطو نحو التقدم والعمران خطوات حثيثات، ولم تلبث أن أصبحت مرة ثانية ميناء مصر الأول وعاصمتها الثانية، ولهذا الازدهار قصة طويلة نرجو أن نوفق لروايتها فى طبعة تالية بإذن الله.

---

(١) Lepere (Gratien): *Mémoire sur la ville d'Alexandrie. Dons la "Description de l'Egypte". Etat Moderne tome 2, parti 2, P.p. 269-324.*

(٢) Norry: *Description de la Colonne dite de Pompee. Dans la "Description de l'Egypte" t. V, P.p. 508-518; Martin (P): Notice sur un grand monument souterrain a l'Ouest de la Ville d'Alexandrie. Op. Cit. P.p. 519-530.*

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى بحثين هامين آخرين نشرًا فى المجلة التى كانت تصدرها الحملة أثناء مقامها فى مصر وهما:

- Lancret et Chabrol: *Mémoire sur le Canal d'Alexandrie (Décade Egyptienne. Kaire, an V III. T, 2. P. 233-251):*
- Nouet: *Rapport sur les observations faites pour déterminer la position Géographique d'Alexandrie et la dircetion de lAiguilla aimantee. (Décade Egyptienne, Kaire. An V II, t. 1., P.p. 165-182).*

(٣) كان سكان المدينة وقت نزول الحملة – تبعًا لاحصائية «لوبير» – ٨٠٠٠ نفس، وقد نقص هذا العدد فى آخر عهد الحملة إلى ٧٠٠٠.

المراجـع

١ – المراجع العربية :

(أ) مخطوطات .

(ب) كتب مطبوعة .

(جـ) مقالات وأبحاث فى صحف ومجلات .

٢ – المراجع غير العربية :

(أ) كتب مطبوعة .

(ب) مقالات وأبحاث فى صحف ومجلات .

أولاً : المراجع العربية

(أ) مخطوطات

١ - حمزة (الشيخ أحمد)

= مقامات سيدى أبى القاسم بن منصور بن يحيى الإسكندرى المعروف بالقبارى ، المتوفى سنة ٦٦٢هـ (ترجمة موجزة للشيخ القبارى ، اختصرها عن ترجمة أخرى مطولة - غير موجودة - لناصر الدين بن المنير) . مخطوطة بمكتبة البلدية بالإسكندرية ، رقم ١٦٨٥ .

٢ - الذهبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز)

= تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام . مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم ٤٢ .

٣ - ابن رشيد (أبو عبد الله محمد بن عمر السبتى)

= ملء العيبة ، فيما جمع بطول الغيبة ، فى الرحلة إلى مكة وطيبة ، مخطوطة فى ٥ مجلدات بمكتبة الأسكوريال ، أرقام : ١٦٨٠ ، ١٧٣٥ ، ١٧٣٦ ، ١٧٣٧ ، ١٧٣٩ ، وتوجد من المجلد الأخير مصورات شمسية بمكتبة البلدية بالإسكندرية .

٤ - السلفى (أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهانى)

= معجم السفر ، مجلدان ، صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٣٩٣٢ .

٥ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)

= رسالة فى فضل ثغر الإسكندرية ، مخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر رقم ١٣٧٤ .

٦ - الشيال (الدكتور جمال الدين)

= معاهد العلم فى الشرق الأدنى العربى فى القرنين السادس والسابع (مخطوطة لم تطبع بعد) .

٧ - الصباغ (أبو على الحسن بن عمر بن الحسن)

= فضائل الإسكندرية ، مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم ١٦٣ .

٨ - المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا . المخطوطة الكاملة الوحيدة بمكتبة سراى أحمد الثالث باستانبول ، رقم ٣٠١٣ (وتوجد منها صور شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية) .

٩ - النويرى (محمد بن القاسم السكندرى)

= الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية ، فى واقعة إسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها إلى حالتها المرضية :

مخطوطة برلين ، رقم ٩٨١٥ .

مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ٣٩٤٢ .

مخطوطة (خزانة بانكى فور) بالهند ، رقم ٢٣٣٥ .

مخطوطة المتحف البريطانى ، رقم ٦٠٦ .

(ب) كتب مطبوعة

١٠ - الإدريسى (الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الصقلى)

= نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . طبع منه جزء بعنوان : (صفة المغرب والسودان) ، ليدن ، ١٨٦٦م .

١١ - ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) .

= بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٤ أجزاء، بولاق، ١٣١١هـ - ١٣١٤هـ والجزءان ٤، ٥. طبعة بأول كالـه، ومحمد مصطفى، وموريتس سوبرنهايم، استانبول، مطبعة الدولة، ١٩٣١م.

١٢ - بتلر (ألفريد)

= فتح العرب لمصر (الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد) . القاهرة ، ١٩٣٣م .

١٣ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى)

= مهذب رحلة ابن بطوطة ، جزءان ، نشر أحمد العوامرى ، ومحمد أحمد جاد المولى . القاهرة، ١٩٣٣م.

١٤ - البلوى (أبو الحجاج يوسف بن محمد ، المالكى ، الأندلسى)

= ألف باء . المطبعة الوهبية بالقاهرة ، ١٢٨٧هـ.

١٥ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ظهر منه ١٢ جزءًا، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ١٩٢٩م - ١٩٥٦م .

١٦ - التطيلى (بنيامين بن يونة النبارى الأندلسى)

= الرحلة (ترجمها عن العبرية إلى العربية : عزرا حداد) . بغداد ، سنة ١٩٤٥م.

١٧ - ابن جبير

= الرحلة . الطبعة الثانية ، ليدن ، ١٩٠٧م .

١٨ - حاجى خليفة

= كشف الظنون. طبعة وكالة المعارف التركية باستانبول، ٤ مجلدات ١٩٤١م - ١٩٤٥م.

١٩ - ابن حجر

= الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، حيدر أباد ، ١٩٣٨م - ١٣٥٠م.
٢٠ - حسن (الدكتور حسن إبراهيم)
= عبيد الله المهدى (بالاشتراك مع الدكتور طه شرف)، القاهرة، سنة ١٩٤٧م .
٢١ - الفاطميون فى مصر ، القاهرة ، ١٩٣٢م .
٢٢ - المعز لدين الله (بالاشتراك مع الدكتور طه شرف)، القاهرة، سنة ١٩٤٨م .
٢٣ - حمزة (الدكتور عبد اللطيف)
= تاريخ الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، القاهرة، ١٩٤٧م .
٢٤ - ابن حوقل (أبو القاسم محمد البغدادى الموصلى)
= المسالك والممالك، والمفاوز والمهالك، ليدن، ١٨٧٣م .
٢٥ - ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الخراسانى)
= المسالك والممالك ، نشره دى خويه ، ليدن ، ١٨٨٩م .
٢٦ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)
= وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ.
٢٧ - ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى)
= الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزءان ٤ ، ٥ ، بولاق ، ١٣٠٩هـ.
٢٨ - ديل (شارل)
= البندقية (الترجمة العربية للدكتور أحمد عزت عبد الكريم، والأستاذ توفيق اسكندر) ، القاهرة ، ١٩٤٨م .
٢٩ - الذهبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز)
= تذكرة الحفاظ . ٤ أجزاء ، حيدر اباد _بدون تاريخ) .
٣٠ - الرافعى (عبد الرحمن)
= تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٢٩م .
٣١ - عصر محمد على ، القاهرة ، ١٩٣٠م .
٣٢ - ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر)
= الأعلاق النفيسة ، ليدن ، ١٨٩٢م .

٣٣ – السبكى (أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين)
= طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء، القاهرة ، ١٣٢٤هـ.
٣٤ – السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)
= الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ.
٣٥ – الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ١٢ جزءًا ، القاهرة ، ١٣٥٣ – ١٣٥٤هـ.
٣٦ – سرهنك (إسماعيل باشا)
= حقائق الأخبار عن دول البحار، ٣ أجزاء، بولاق، ١٣١٢هـ، ١٣١٦هـ، ١٩٢٣م.
٣٧ – السندوبى (حسن)
= أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالإسكندرية، القاهرة، سنة ١٩٤٤م.
٣٨ – السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)
= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءان، القاهرة ١٣٢٧هـ.
٣٩ – أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى)
= كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين. جزءان، ١٢٨٧هـ – ١٢٨٨هـ.
٤٠ – شكرى (الدكتور محمد فؤاد)
= بناء دولة – مصر محمد على – (بالاشتراك مع الأستاذين عبد المقصود العنانى وسيد خليل)، القاهرة، ١٩٤٨م.
٤١ – الشيال (الدكتور جمال الدين)
= مجمل تاريخ دمياط ، الإسكندرية ، ١٩٤٩م.
٤٢ – طوسون (الأمير عمر)
= أديرة وادى النطرون ، الإسكندرية ، ١٩٣٢.
٤٣ – خليج الإسكندرية وترعة المحمودية ، الإسكندرية ، ١٩٤٢م.
٤٤ – ابن ظافر (جمال الدين أبو الحسن على بن حسين الأزدى المصرى)
= بدائع البدائه ، بولاق ، ١٢٧٨ هـ.
٤٥ – عبد الوهاب (حسن)
= تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٦م.

٤٦ – ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)
= شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ١٢ جزءًا ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ – ١٣٥٣هـ .
٤٧ – عواد (ميخائيل)
= المآصر فى بلاد الروم والإسلام . بغداد ، ١٩٤٨م .
٤٨ – فازيلييف
= العرب والروم (الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة)، القاهرة، ١٩٥٠م .
٤٩ – فرج (فؤاد)
= الإسكندرية ، مطبعة المعارف بالقاهرة ، ١٩٤٢م .
٥٠ – ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق بن إبراهيم الهمذانى)
= كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥م .
٥١ – فهارس دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الجزء ٥ ، ١٣٩٠هـ ، والجزء ٨ ، ١٩٤٢م .
٥٢ – فهارس المخطوطات العربية بمكتبة أبا صوفيا ، استانبول ، ١٣٠٤هـ .
٥٣ – القلقشندى (أبو العباس أحمد)
= صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ١٤ جزءًا، القاهرة، ١٩١٣م – ١٩١٩م .
٥٤ – كلوت بك (الدكتور)
= لمحة عامة إلى مصر (الترجمة العربية لمحمد مسعود) جزءان، القاهرة (بدون تاريخ) .
٥٥ – الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف)
= كتاب الولاة والقضاة / طبعة جست ، بيروت ، ١٩٠٨م .
٥٦ – مبارك (على باشا)
= الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءًا، القاهرة ، ١٣٠٤هـ – ١٣٠٦هـ .
٥٧ – متز (آدم)
= الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جزءان (الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة)، الطبعة الثانية، القاهرة سنة ١٩٤٨م .
٥٨ – مرزوق (الدكتور محمد عبد العزيز)
= الزخرفة المنسوجة فى العصر الفاطمى، القاهرة ، ١٩٤٢م .

٥٩ – مسعود (محمد بك)
= المنحة الدهرية فى تخطيط الإسكندرية ، الاسكندرية ١٣٠٨هـ.
٦٠ – المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد)
= أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة دى خويه ، ليدن ، ١٩٠٦م .
٦١ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا . نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨ .
٦٢ – السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة (ظهر منه ٦ مجلدات)، القاهرة ١٩٣٤م – ١٩٥٨م .
٦٣ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء مطبعة النيل بالقاهرة، ١٢٢٤هـ – ٣٢٦ هـ.
٦٤ – ابن مماتى (الأسعد بن مليح)
= قوانين الدواوين . طبعة مطبعة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩ هـ . ونشرة الدكتور عزيز سوريال عطية. القاهرة ، ١٩٤٣ .
٦٥ – الندوى (السيد هاشم)
= تذكرة النوادر من المخطوطات العربية . حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٠هـ.
٦٦ – نصحى (الدكتور إبراهيم)
= مصر فى عصر البطالمة . جزءان ، القاهرة ١٩٤٦م .
٦٧ – ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى)
= معجم البلدان . ليبزج ، ١٨٧٠م .

(جـ) مقالات وأبحاث فى صحف ومجلات

٦٨ – شعيرة (الدكتور محمد عبد الهادى)

= الإسكندرية من العصر العربى إلى نهاية العصر الفاطمى (فصل من كتاب (الإسكندرية) الذى أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية ، القاهرة ، ١٩٤٩م) .

٦٩ – الشيال (الدكتور جمال الدين)

الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى (فصل من الكتاب سابق الذكر) .

٧٠ – الفسطاط ، كيف اختير مكانها ، ولم سميت بهذا الاسم (مقال بمجلة الرسالة ، العدد ٦٤٠ ، ٨ أكتوبر ١٩٤٥م) .

٧١ – شيبوب (صديق)

جمهورية أندلسية بالإسكندرية (مجلة الكتاب ، فبراير ١٩٤٩م) .

٧٢ – صفوف (الدكتور محمد مصطفى)

= الإسكندرية فى العصور الحديثة (فصل من كتاب الغرفة التجارية سابق الذكر) .

٧٣ – عبد الوهاب (حسن)

= الإسكندرية بين محمد على والفاروق (مقال بجريدة الأهرام فى ٨ – ٧ – ١٩٤٩م).

٧٤ – الإسكندرية فى العصر الإسلامى (مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٧م)

٧٥ – قلعة قايتباى ، أثر إسلامى عظيم وسط البحر (مقال بجريدة الأهرام فى ٢٥ – ٧ – ١٩٤٩م) .

٧٦ – عطية (الدكتور عزيز سوريال)

= نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر (فصل من كتاب (الرهبنة القبطية) الذى أصدرته (جمعية مارمينا العجائبى) الإسكندرية ، ١٩٤٨م) .

٧٧ – الإسكندرية فى العصر المسيحى (فصل من كتاب الغرفة التجارية سابق الذكر) .

٧٨ – على (الأستاذ زكى)

= الإسكندرية فى عصر البطالمة والرومان (فصل من كتاب الغرفة التجارية سابق الذكر) .

٧٩ – على (الأستاذ زكى)

= الإسكندرية ، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فـي عصر البطالمة (مجلـة كليـة الآداب بجامعة فاروق الأول ، العدد الثاني ، ١٩٤٤م ، والعدد الرابع ، ١٩٤٨م) .

٨٠ – كومب (اتيين)

= بعض منتخبات من كتاب الإلمام للنويرى الإسكندرى (مجلة كلية الآداب بجامعـة فـاروق الأول. العدد الثالث ، ١٩٤٦م) .

٨١ – مكرم (موريس)

= الأديرة الغربية (فصل من كتاب (الرهبنة القبطية) المذكور فى رقم ٧٦) .

ثانيًا : المراجع غير العربية

(أ) كتب مطبوعة

82 – Atiya : (Dr. Aziz Suryal).

= *The Crusade in the Later middle Ages. London. 1938.*

83 – Breccia.

= *Alexandria ad Aegyptum. Bergame. 1915.*

84 – Brockelmann (Carl).

= *Geschichte der Arabichen Litteratur. 5 vols. 1898, 1902., 1937, 1938, 1939.*

85 – Capitanovici.

= *Die Erolerung Von Alexandria durch Peter I. Von Lusignan. Dissertation. Berlin, 1894.*

86 – El-Falaky (Mahmoud Bey).

= *Memoire sur l'Antique Alexandrie. Copenhague, 1872.*

87 – Garcia de Herreos (Enrique).

= *Quatre Voyageurs Espagnols á Alexandrie. D'Egypte : Benjamin de Tudela 1166-71. Ibn Goubair 1183-85. Pero Tafur 1435-39. Ali Bey Abbassi (Domingo Badia) 1803-7. Alex. 1923.*

88 – Herzhon.

= *Der Ueberfall Alexandriens durch Peter I Von Lusignan. Dissertation Berlin. 1894.*

89 – Ibn Battuta (Mohammed Ibn Abd Allah).

= *Travels in Asia and Africa (1325-1354) Translated and selected by H. A. R. Gibb, (With an Introduction and note.). London. 1939.*

90 – Jondet (Gaston).

= *Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie. Le Caire, 1921. (Mémoires Présentés à la Société Sultanieh de Géographie, tom II).*

91 – Jones (A. H. M.).

= *The Greek City. Oxford, 1940.*

92 – Kahle.

= *Diekatastrophe des Mittelalierlichen Alexandria, in Melanges Maspéro. (Mém. Inst. Franç. Caire, 68) 1935.*

93 – Lepère (Gratien).

= *Me'moire sur la Ville d'Alexandrie, dans la "Description de l'Egypte" Etat Moderne, tom.* 2. Partie 2. P.P. 269-324.

94 – Martin (P).

= *Notice sur uh grand Monument Souterrain à l'Ouest de la Ville d'Alexandrie, dans la "Description de l"Egypt et. V. P. P. 519-530.*

95 – Machaut (Guillaume de)

= *La Prise d'Alexandrie, ou Chronique du roi Pierre 1 er de Lusignan. Publiée pour la premiére fois pour la société de l'Orient Latin par M. L. de Mas Latrie. Genève. 1877.*

96 – Norry.

= *Description de la Colonne dite de Pompée dans la "Description de l'Egypte". T. V. P. P. 508-518.*

97 – Saint – Genis.

= *Description des Antiquités d'Alexandrie et des ses Environs, dans la "Description. De l'Egypte". t. v. p. p 181 – 507; explcation des planches t. P. P. 509 ss.*

98 – Tarn (W. W.).

= *Hellenistic Civilisation. London, 1930.*

99 – Wiet (G).

= *Mohammed Ali et Les Beaux arts. Le Caire, 1950.*

100 – Zogheb (A.M. de).

= Etudes sur l'Ancienne Alexandrie. Alexandrie 1910.

101 – Zogheb (Count Patrice de).

= *Alexandria Memories. Alexandria, 1940.*

(ب) أبحاث ومقالات في صحف ومجلات

102 – Combe (Et.).

= *De la Colonne Pompée au Phare d'Alexandrie, dans (Bull S. R. d'Arch. D'Alex, No. 34. Alexandrie, 1940).*

103 – = *Les Levés de Gravier d'Ortières à Alexandrie (1686) dans Bulletin of the Faculty of Arts, Farouk 1st University. V. 1. 1943. P P. 52-67.*

104 – = *Notes sur les Farts d'Alexandrie et des Environs. Dand Bull. Soc. R. d'Arch. D'Alex. No. 34. 1940.*

105 – = *Les Sultans Mamlouks Ashraf Shà ban (764-778 H. 1363-76 A. D.). et Ghauri (906-922 H. 1501-16. A. D.). à Alexandrie. Dans Bulletin de la Société Royale d'Archèologie d'Alexandrie. No. 30. 1936.*

106 – Combe (Et.).

= *Le Texte de Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie, par Pierre I de Lusignan, dans Bulletin of the Faculty of Arts, Farouk 1st University. V. III. 1946.*

107 – Enc. Islam.

= *Art. : Alexandria.*

= *Art. : Tiraz.*

108 – Lancret et Chabrol.

Mémoire sur le Canal d'Alexandrie. (Déc ade Egyptienne. Caire, an XIII. T. 2. P.P. 233-251).

109 – Lee Childe (Blanche).

= *Impression de Voyage, Alexandrie et Le Caire. (Revue des Deux Mondes, Paris, 1882. Tome 52. P.P. 303-341).*

110 – Nouet.

= *Rapport sur les Observations faites pour déterminer la position Géographique D'Alexandrie et la direction de l'Aiguille aimantée. (Décade Egyptienne. Caire. An VII. T. I. P.P. 165-182).*

111 – Toussoun (Prince Omar).

= *Desription du Phare d'Alexandrie d'après un auteur Arabe de XII siècle. Dans Bull. S. R. d'Arch. D'Alex. No. 30. 1935.*

112 – = *Note sur les Ports d'Alexandrie et de ses Environs dand Bull. S. R. d'Arch. D'Alex. No. 34. 1939.*

فهرس

موضوعات الكتاب

الصفحات

صور الكتاب



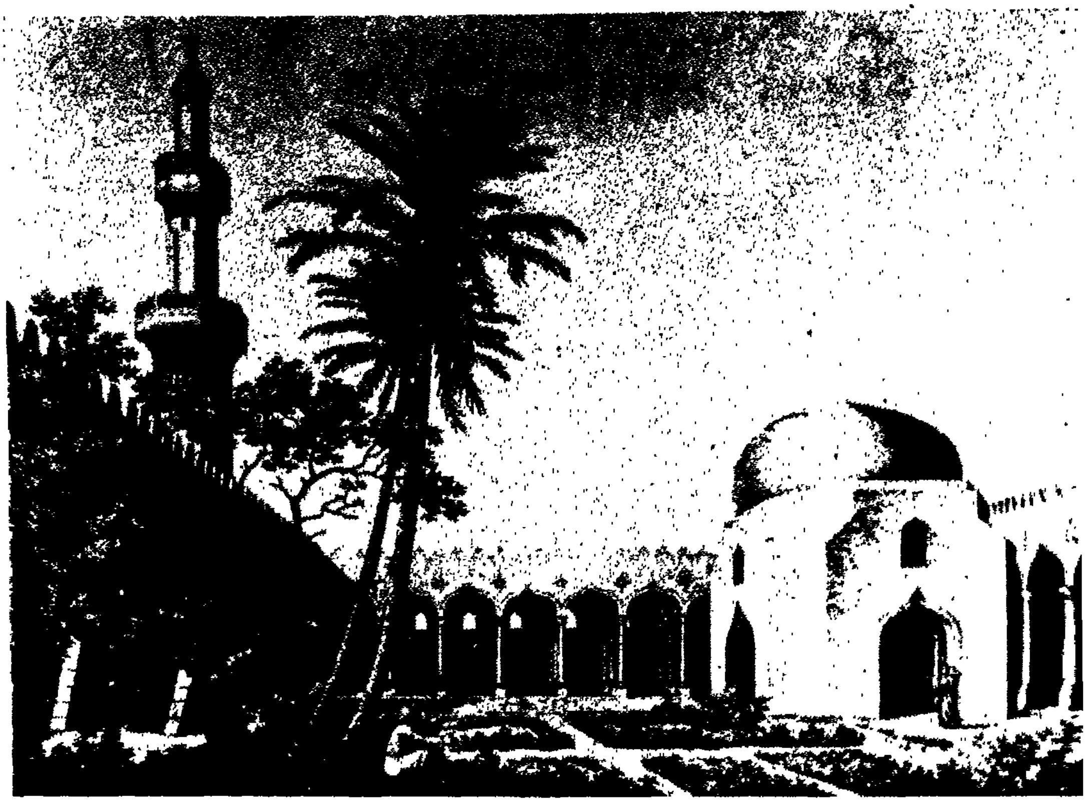
منظر داخلى لبرج قديم كان يقع شمال المسلتين ويعرف ببرج الرومان
(انظر شكل ١)

عن كتاب «وصف مصر»



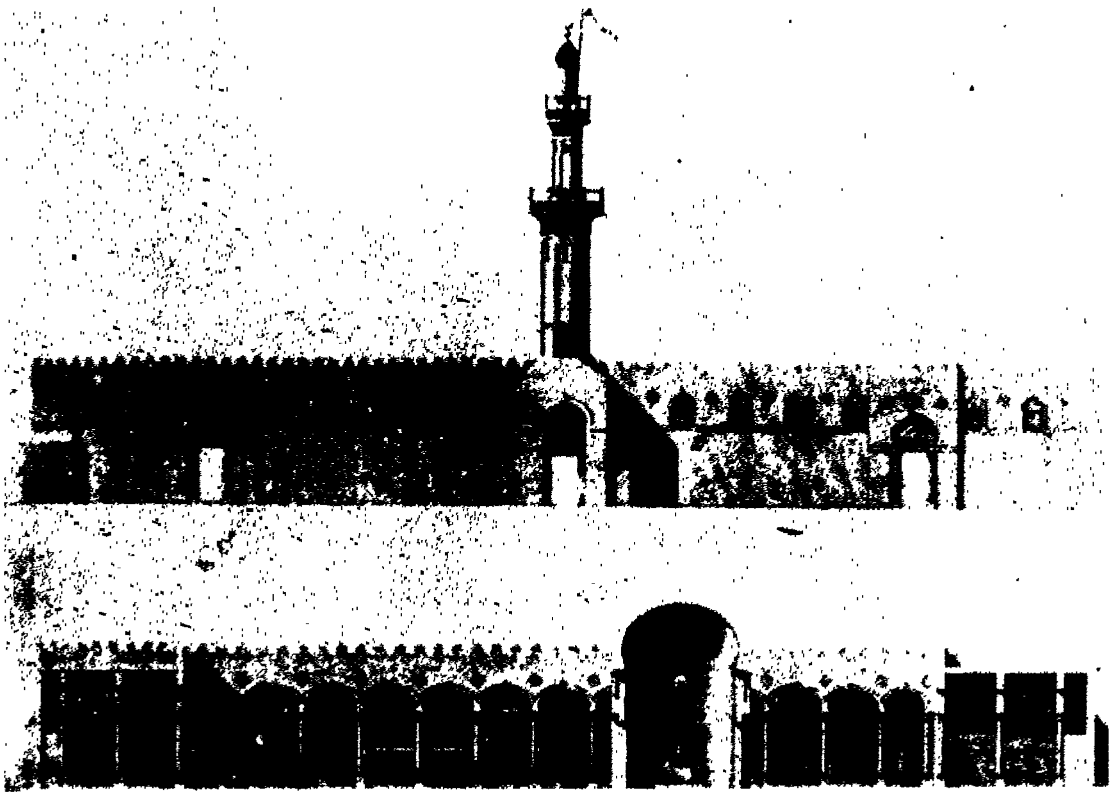
منظر جانبى لعمود السوارى
الصورة أخذت فى أواخر القرن الثامن عشر

عن كتاب «وصف مصر»



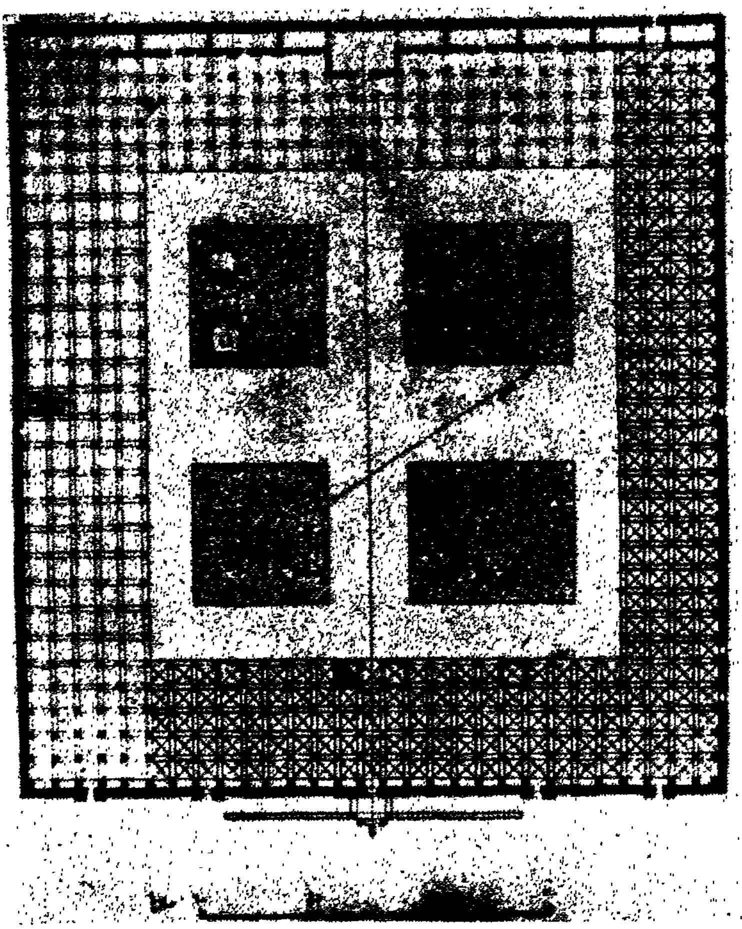
منظر داخلى لمسجد كان يعرف بين العامة فى عهد الحملة الفرنسية باسم «الجامع الغربى» أو «جامع سانت اثناسيوس» لأنه بنى على أنقاض كنيسة كانت تحمل هذا الاسم

عن كتاب «وصف مصر»



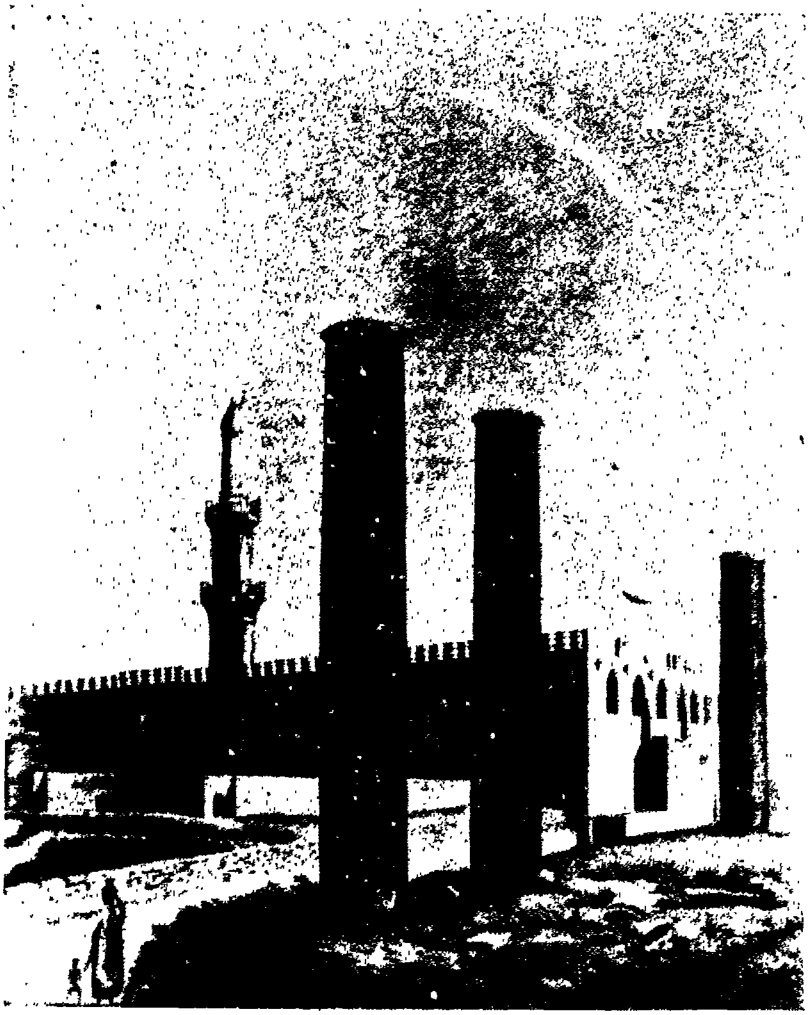
قطاع رأسى وواجهة الجامع الغربى

عن كتاب «وصف مصر»



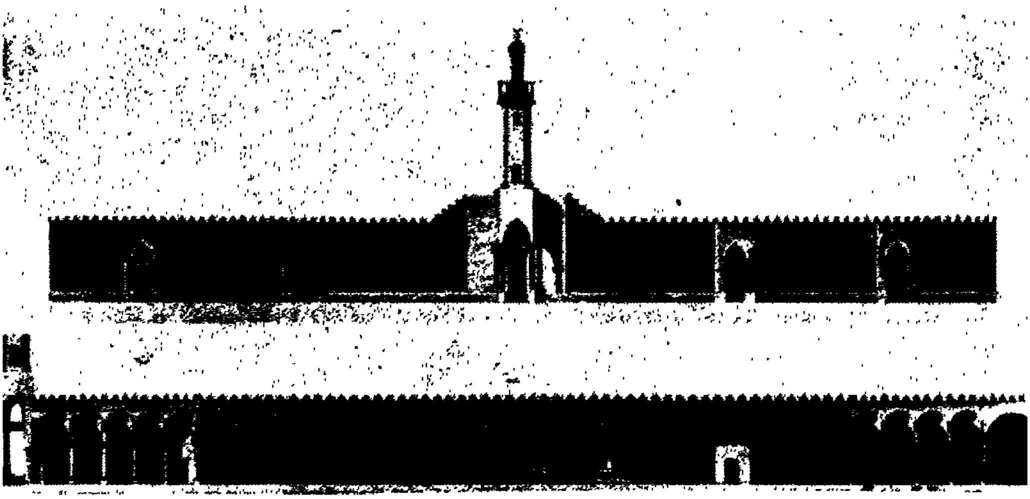
مسقط أفقى لجامع الألف عمود أو «الغربى»

عن كتاب «وصف مصر»



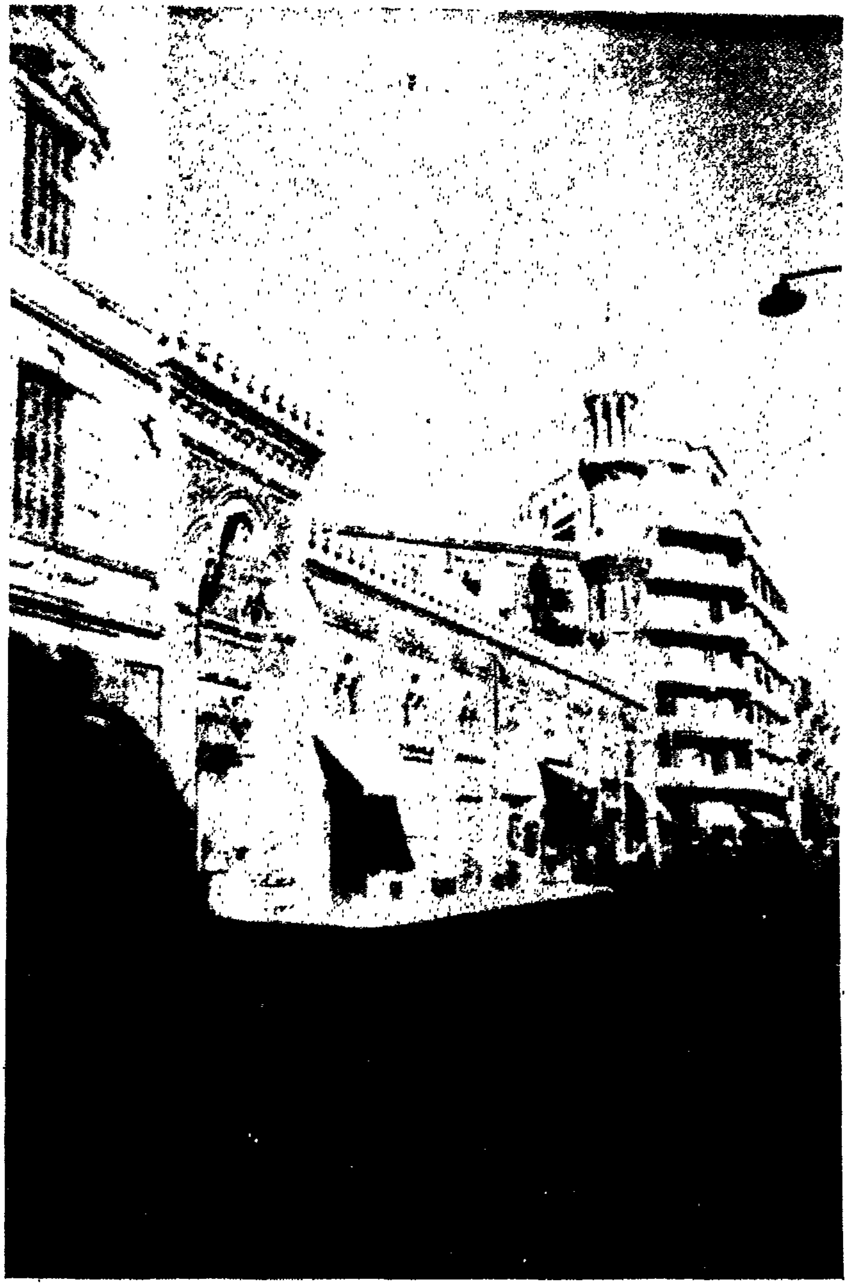
منظر لثلاثة أعمدة من الجرانيت كانت موجودة (أواخر ق ١٨)
جنوب الجامع الغربي

عن كتاب «وصف مصر»



قطاع وواجهة جامع الألف عمود أو الغربى فى عهد الحملة الفرنسية

عن كتاب «وصف مصر»



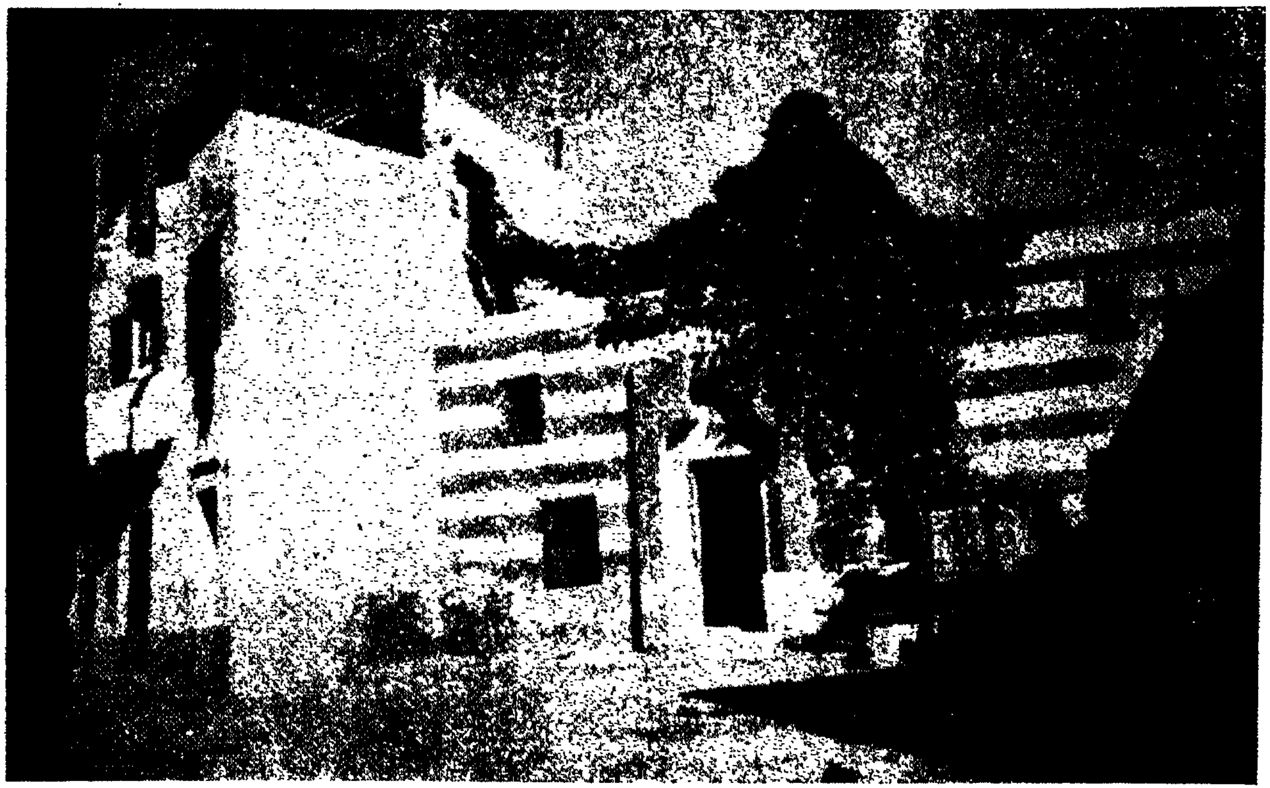
منظر جانبى لجامع العطارين، وتوجد لوحة تجديده داخل
الباب الشمالى الشرقى الواقع داخل المئذنة الظاهرة فى الصورة



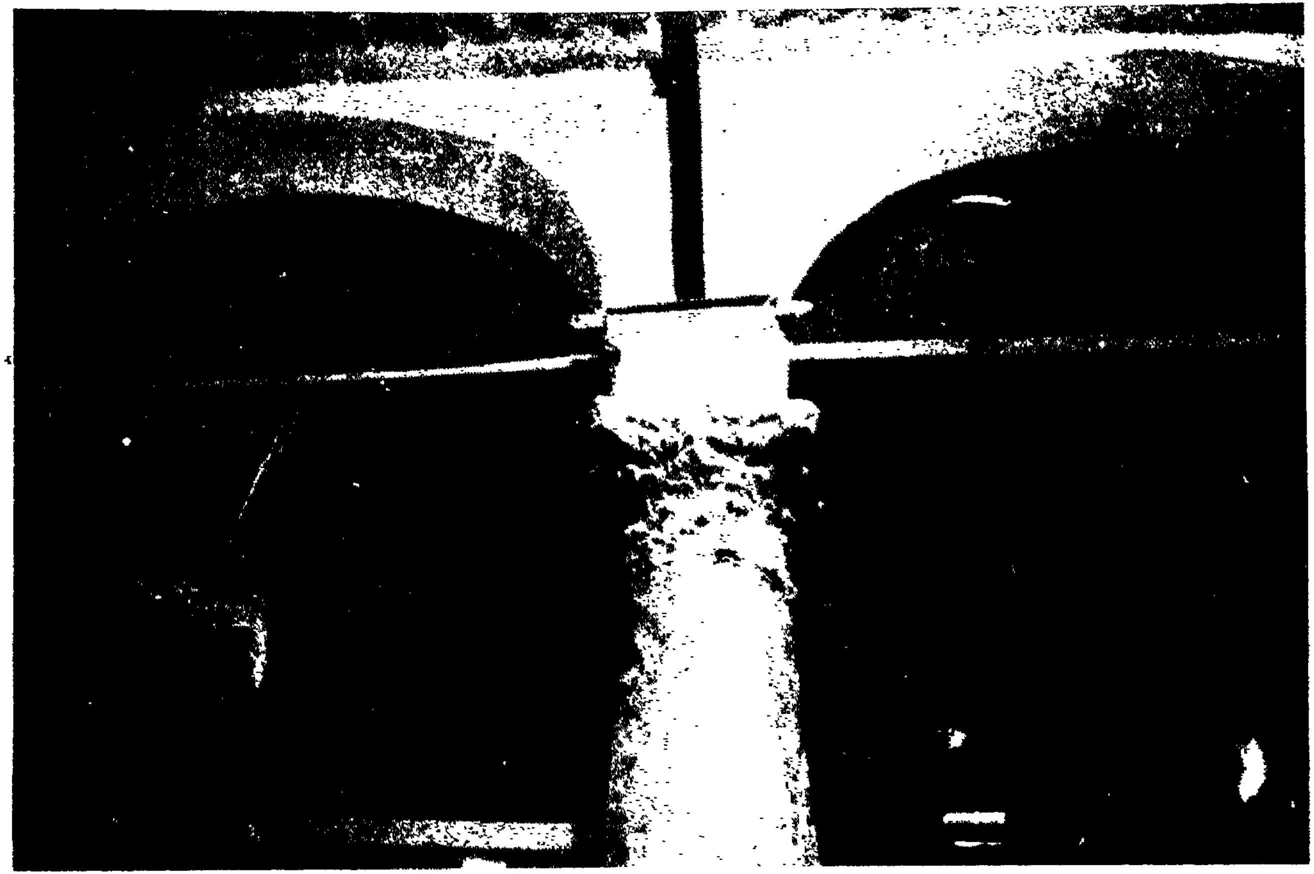
منظر آخر لجامع العطارين



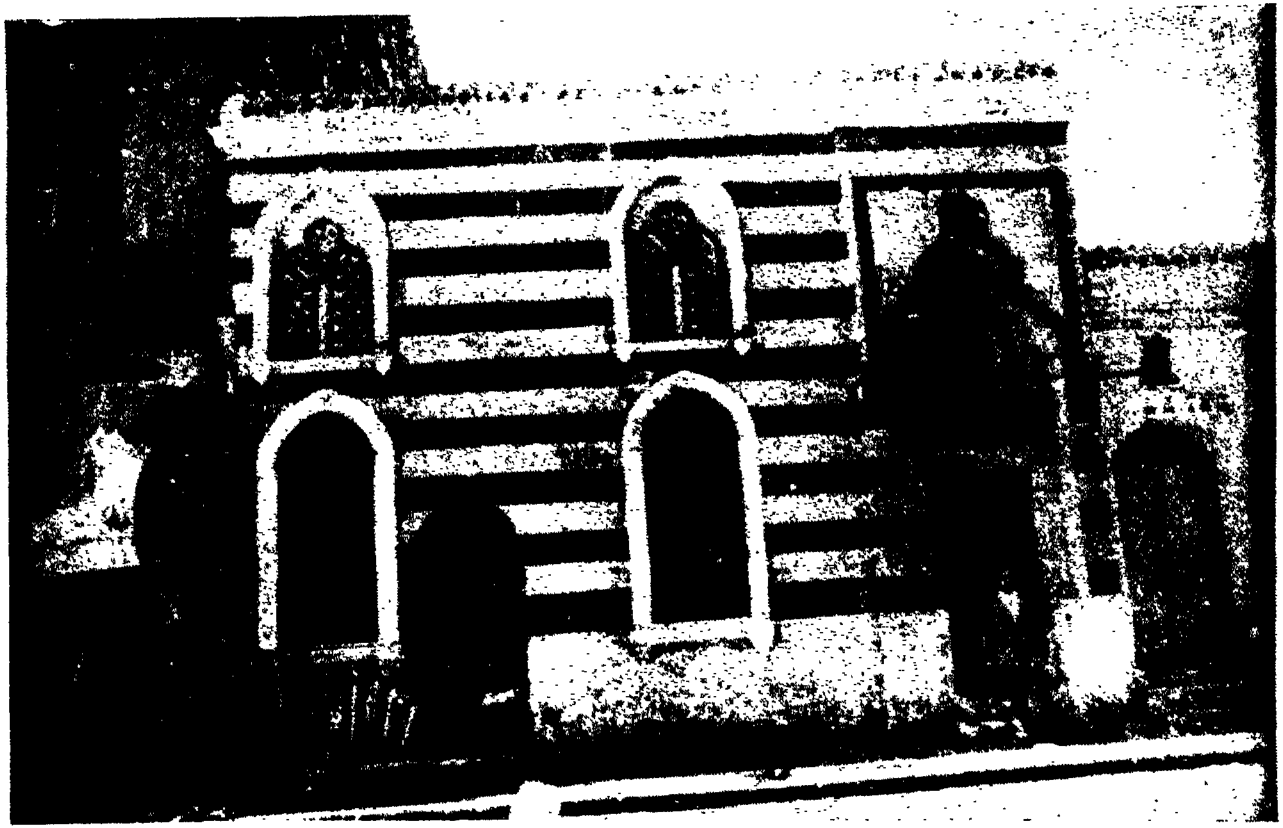
جامع العطارين حالياً من الداخل



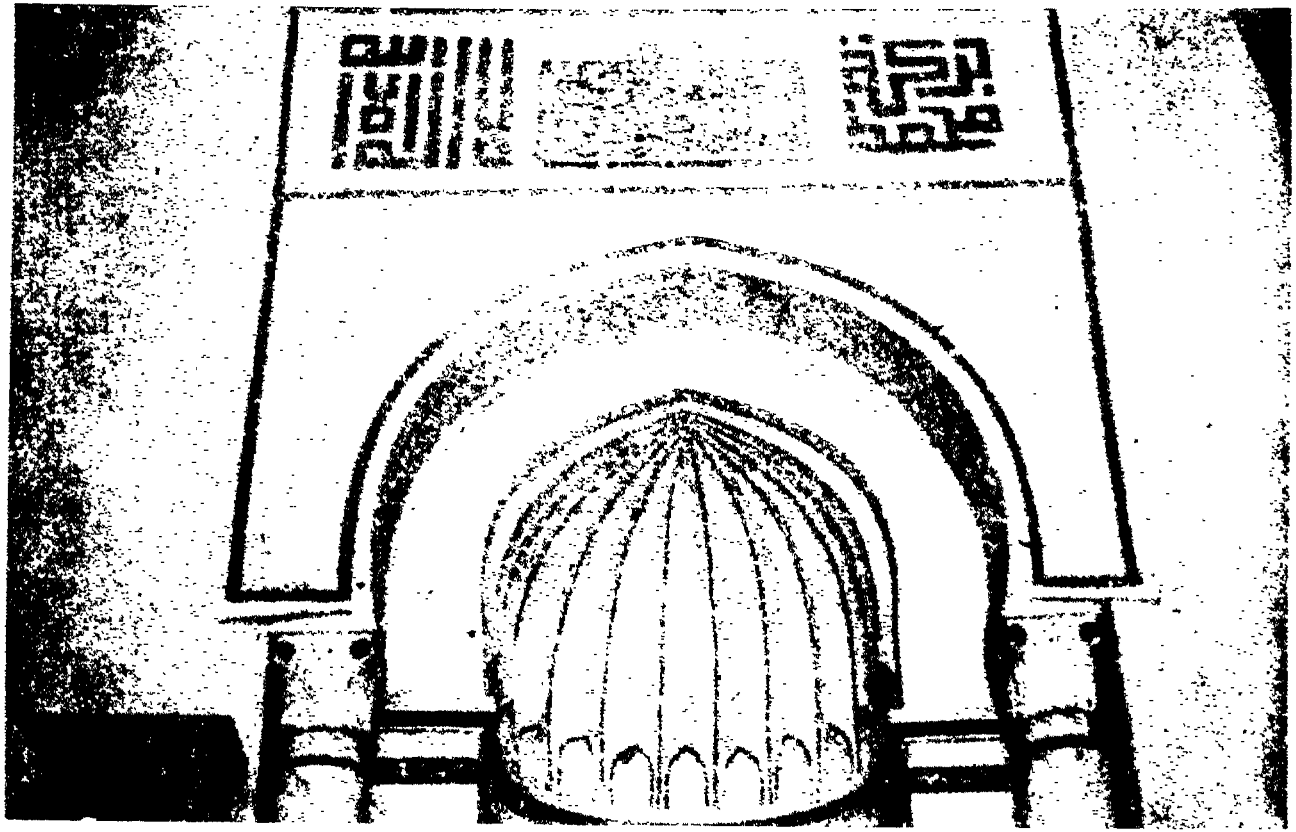
ضريح أبى بكر الطرطوشى من الخارج قريب من شارع الباب الأخضر
(كما يبدو اليوم)



منظر بداخل ضريح أبي بكر الطرطوشي. لاحظ العقدين والعمود المتوسط
بينهما ذا التاج الروماني



جامع القاضي سند بن عنان تلميذ أبي الطاهر بن عوف ويقال إن الحافظ
السلفي مدفون بداخله

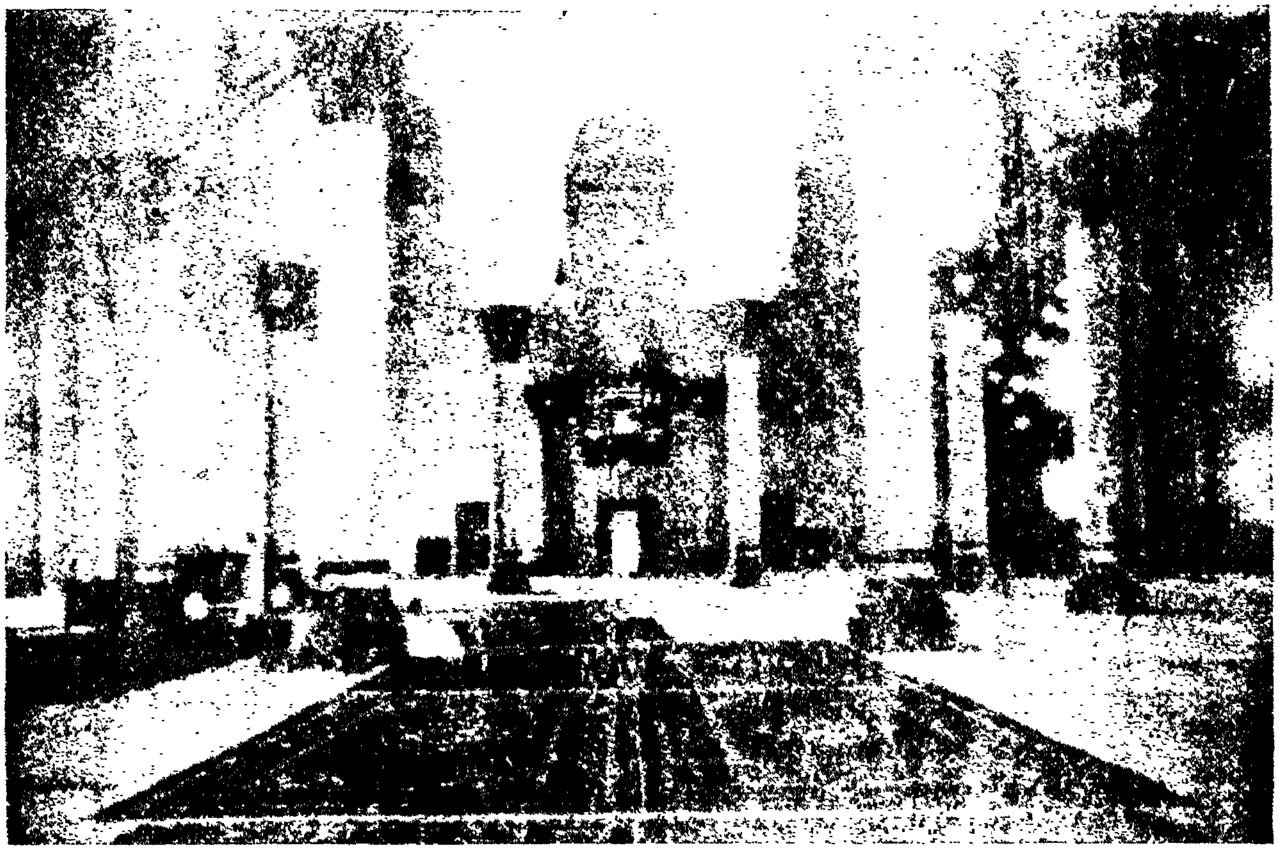


الجزء الأعلى من محراب مسجد التابعي الجليل سيدى عبد الرحمن بن هرمز

«وبأعلاه لوحة تتضمن اسم بانى المسجد وتاريخ بنائه»



مسجد أبى العباس المرسى الجديد «من الداخل»



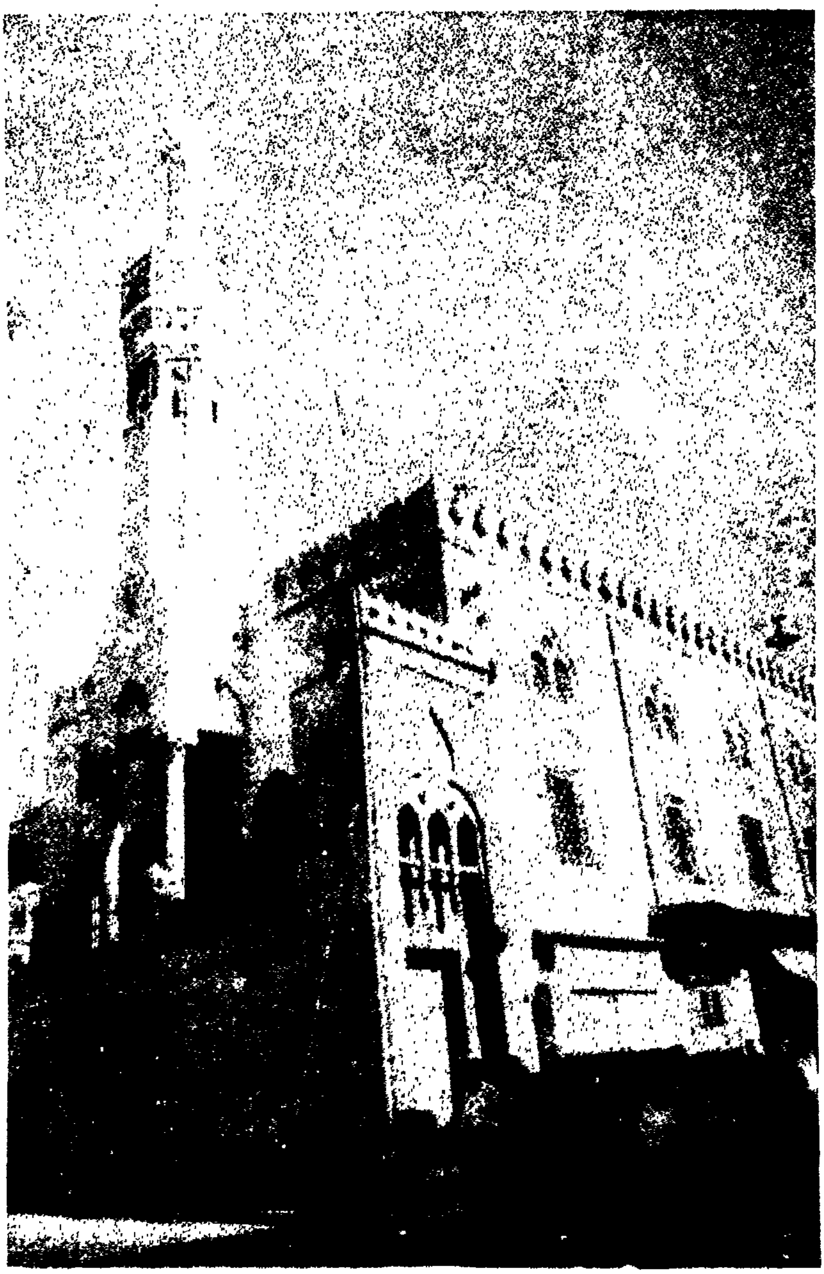
منظر آخر لمسجد أبي العباس المرسي «من الداخل»



مسجد أبي العباس المرسي الجديد من الخارج



رباط الواسطى «خلف مسجد أبي العباس المرسي»



جامع تربانة (العصر العثمانى)



وكالة الشوربجي «من العصر العثماني»

فهرس

الصور والخرائط

الصفحات



كانت مدينة الإسكندرية ، ومازالت ، من المدائن التى لعبت دورا هامًا فى تاريخ أمتنا العربية قديمًا وحديثًا بصفة خاصة ، والعالم بصفة عامة ، فهى بمثابة الثغر الحربى والميناء التجارى وصاحبة الشهرة الفائقة فى المعارك الحربية التى غيرت معالم التاريخ.

فلهذا نقدم للمكتبة العربية كتابا هامًا من كتب التاريخ للمؤرخ الأستاذ/ الدكتور جمال الدين الشيال صاحب المدرسة التاريخية المعروفة . كما أن هذا الكتاب يحتوى على دراسة معمارية تاريخية هامة لهذا الثغر منذ نشأته وحتى العصر الحديث .

دار المعارف
٠١٧٢٨١/٠١